صلي ع النبي يا جورج

وليد رباح

الكتاب: صلي ع النبي يا جورج (رواية)

المؤلف: وليد رباح

الطبعة الأولى: القاهرة ٢٠١٧

رقم الإيداع: ٢٠١٧/٧٦٦٣

الترقيم الدولي: I.S.B.N: 978-977-493-247-8

الناشر

شمس للنشر و الإعلام

٢٧ ش الثلاثين. برج الشانزليزيه. زهراء المعادي. القاهرة

www.shams-group.net

تصميم الغلاف: ياسمين عكاشة



صلي ع النبي يا جورج

رواية من الواقع

وليد رباح



صورة حدثت في زمان مضى...

أنا (كاتب هذه السطور) أقرُّ وأعترف أنني أكتب هذه الكلمات وقد انتابني شعور بأن الحياة سخيفة إلى درجة مستفزة، ورغم أنني وعدت صاحبها ألا أبوح بسره إلا بعد أربع عشرة سنة، فقد مضت السنوات تلك، لذا فقد تحللت من وعدي لأنه كان يعتقد ألا يعيش بعد ذلك، وأكتبها على دفعات لا أدريها حسبما يوجهني به الحرف.

ولا أريد في هذه الكلمة أن أكتب تاريخًا، فكلنا يعرف التاريخ الذي أكتب، ولكن الضرورة تقضي تبيان بعض الحقائق حتى لا يتيه القارئ، ويظن أنها رواية من نسج الخيال، إنها الحقيقة التي أخفتها الأيام زمنًا طويلاً، فتعالوا بنا نبحر فيها.

(١)

كنا في بيتنا ستة؛ سابعهم كلبهم، كان الكلب قصير الذيل مقصوصه، ولا أدري إن كان قد قص عمدًا لذنب ارتكبه، أو أنه نما في بطن أمه مثلما كان عليه، كان الكلب يدعى (سامبو) لأنه ذو سواد في جبهته، أما السادس فكان (جورج).

وجورج اسم حقيقي لا التواء فيه ولا عوج, أو هكذا كان يقال، فقد استأجر غرفة في الدور السفلي من سكننا، أحضره شيخ المسجد في قريتنا لأبي، لأنه كان ذا يسار وثقة وقال له:

- اسمع يا علي، هذا اسمه جورج، وهو أمانة في عنقك إلى يوم الدين، أطعمه مما تأكل، وعامله كأنه أحد أقاربك، ولا تسأله كثيرًا، فقد أصابه مرض النسيان ولن تستطيع أن تأخذ منه حرفًا إلا بصعوبة، ولا تصدِّقه فيما يقول.

قال أبي:

- على الرحب والسعة يا شيخنا، هو عندي بمثابة أخي.

قال الشيخ:

- لا تنسَ أن تأخذ منه أُجرة الغرفة التي وعدت أن تكون له بخمسة عشر قرشا فلسطينيا في الشهر...
- لك ذلك يا شيخنا.

ولأنني لا أعرف ما الذي كان يجري في بيتنا لصغر سني، فإني سأتحدث عن نفسي وجورج لأنه محور(القضية) إلا من بعض التفاصيل،

لقد عاش جورج في غرفته المنعزلة ردحًا من الزمن، كان قليل الكلام فيما يتحدث به، ولكنه كان حاد القول حين يلعب الورق في غرفته مع أبي، مما حدا بي إلى الاعتقاد أنه واعٍ لما يقول ويفعل، عكس ما تحدث به الشيخ.

وجورج كما أتذكره كان طويلاً عريضًا يطال رأسه سقف الغرفة، أما أبي فقد كان معتدل القامة لا بالطويل ولا بالقصير، وكنت أخشى ما أخشاه أن يغضب جورج (فيلطم) أبي علقة يذكرها طيلة عمره.

كان بياض سحنة أبي تجعله يتفصد عرقًا وتبرز عروق رقبته عندما يغلبه جورج في لعبة الورق، فيصرخ:

- صلي ع النبي يا جورج، أنت تسرق الورق!

فيقول له جورج:

- عليه الصلاة والسلام، والله لم أسرق ولم أتعود السرقة في حياتي...

فيعاود أبي كرة السرقة فيقول جورج:

- والعذرا ما سرقت ولا أسرق...

ثم يستدير جورج برأسه ويتمتم ببعض الكلمات بحيث لا يسمعه أحد ويعلم الله ما كان يقول لنفسه، أما أنا فأقف مذهولاً بين الطرفين ظانًّا أن معركة حامية الوطيس سوف تنشب بينهما، لكنهما لا يفعلان، وهكذا تنتهي السهرة على وفاق في النهاية.

ولكني اكتشفت سرًا عظيمًا يخفيه جورج عندما كنت أتلصص من ثقب بالباب وهو يتحدث إلى شيخ المسجد في عزلة عنا، قال له الشيخ:

- يا جورج، أرجو أن تظل مختفيًا ولا تخرج من غرفتك إلى مكان آخر، فالإنجليز يطوقون القرية في كل مناسبة وقد يعثرون عليك.

يقول جورج:

- لا تخشَ شيئًا يا (شيخنا)، منذ أن استأجرت هذه الغرفة لا أخرج منها أبدًا.

يقول الشيخ:

- عولت أن آتيك عندما تحدث مناسبة تجعلني أبوح لك بما يجري، فقد أصدرت محكمة إنجليزية مرسومًا بأنك لا تزال مختفيًا، وطالبت الشرطة بالبحث عنك في كل مكان لكي يتم التنفيذ، ثم صدر بيان آخر عنها ترصد فيه مكافأة كبيرة لمن يدل على مكان وجودك، وأن الجندي الذي قتلته قد أحدث ضجة بين العساكر، إنهم يريدونك، خاصة وأن حكم الإعدام الغيابي الذي صدر بحقك لا يسقط بالتقادم، إني اقرأ جريدة (فلسطين) في كل يوم، وآتيك بالأخبار.

- فليفعلوا ما يشاءون، إني أقدم رقبتي لهم إذا ما قبض علي، لست أحسن من عطا الزير وجمجوم وثالثهم الذي نسيت اسمه...

- إنه فؤاد حجازي...

يقول جورج:

- حسنًا، سأظل أذكر تلك الأسماء حتى نهاية عمري.

غادر الشيخ غرفة جورج مودعًا بقبلة طبعها جورج علي يد الشيخ بخضوع، قائلاً:

- يا (شيخنا) هل من وسيلة لإخبار أبي وأمي في قرية (الزبابدة) بأني ما زلت حيًا؟

قال الشيخ قبل أن يغادر، سوف أجد الوسيلة... ثم همَّ بالمغادرة، فانزويت جانبًا عند كيس من التبن كان أبي يحتفظ به للماشية التي تسرح في (حوش) دارنا بحاجة للطعام، لم أحتفظ بالسر الذي سمعت جانبًا منه، وعندما جاء أبي بعد أن ذهب في رحلة قصيرة وعاد يحمل بعض من الطعام، أخبرته بما سمعت فقال لي:

- يا ولد، لماذا تتلصص على الناس وتكشف أسرارهم، أنت ولد عفريت، وقد يكون ما سمعته ضربا من الخيال...

أقسمت لأبي أنني سمعت ما قيل، قال أبي:

- اسمع جيدًا، إذا ما ألقوا القبض على جورج، فإنك ستعدم معه.

خفت وقلت:

- ولكني لم أقتل أحدًا.

- من يسمع ما سمعت ثم لم يبلغ عما سمع فإنه شريك في (الجريمة)...

وهكذا حلفت لأبي يمينًا أني لم ولن أقول لأحد غيره، قال أبي مبتسمًا:

- هكذا يا ولد يكون الرجال، لم تزل طفلاً، ولكني ألحظ فيك نبوغًا بأنه سوف يكون لك شأن في مقبل الأيام.

وهكذا لم أخبر أحدًا بما سمعت...

دارت بنا الأيام وجورج لم يزل (سجين) غرفته لا يغادرها، وفي يوم أذكره، جاء شيخ المسجد على عجل لكي يدخل غرفة جورج، وكالعادة تلصصت على ما يقولان، قال الشيخ:

- يا جورج، الإنجليز يطوقون القرية الآن، وهم ينادون بمكبرات الصوت أن يخرج الجميع؛ نساء ورجالا إلى باحة القرية عند قهوة (أبي زينه) التي تقبع على شارع العباسية/ اللد، النساء والأطفال جانبًا والرجال على جانب آخر دون اختلاط، والظن أنهم يبحثون عنك، وإني أقترح أن تأتي إلى المسجد كي تختفي في بعض جوانبه.

قال جورج دون خوف:

- فليفعلوا ما يشاءون،ثم استدرك .. لكن المسجد يا شيخنا مكانا غير آمن، فهم يعرفون أنه (وكر) للفارين من وجه عدالتهم الزائفة، دعني أتدبر أمري.

قال الشيخ:

- اللهم إني قد بلغت، سألتحق بمن يتجمعون في الساحة، دعائي لك أن ينقذك الله من بين أيديهم، ثم غادر.

ظل جورج يسرح في غرفته جيئة وذهابا، فتح الباب فجأة فوجدني أتلصص عليه وقال:

- ماذا تفعل هنا يا ولد، لماذا تقف خلف الباب؟

قلت خائفًا:

- يا عم جورج، أرسلني أبي لكي أسألك إن كنت جائعًا فيرسل لك بعضًا من طعام، ورأيت الشيخ يدخل إليك فقلت لنفسي عندما يغادر الشيخ أقولها لك.

قال جورج غاضبًا:

- ورأيت الشيخ أيضًا؟! هل سمعت ما قاله؟

فكرت قليلاً وقلت:

- لم أسمع شيئًا، جئت اللحظة فقط.

تنهد جورج وقال:

- اذهب فلست بحاجة للطعام...

وهكذا ذهبت...

(٢)

كان بيتنا من طابقين، أحدهما سفلي والآخر علوي، وفي العلوي مساحة فوق الغرف مبنية من القرميد الأحمر، كانت موئلاً للعصافير وأعشاشها، ولا أحد منا - أو هكذا خُيِّل إليَّ- يعرف ما فيها، كل ما كنا نراه رفوف العصافير تدخل من خروم في جوانب القرميد وتصعد إلى تلك المساحة، وفي الزاوية الجنوبية كانت هنالك نافذة ضيقة إذا ما أغلقتها لا ينتبه لها أحد، ذلك أنك تصعد إليها بسلم، والنافذة لون الحائط وفيه رقعة فوقية من القرميد بحيث تتماثل مع السقف، أي أنك إذا ما أغلقت النافذة تصبح جزءًا من البيت، فلا تعرف أن هناك شباكا أو نافذة...

وفيما بعد أعلم جورج أبي كيف اختبأ في قن الدجاج (الرحب) الذي تتشارك فيه البط مع الأوز والدجاج فكاد يختنق برائحته العفنة، ومن ثم انتبه إلى النافذة فأتى بسلم واستأجر صبيا بخمسة مليمات كي يرفع السلم من مكانه إلى البعيد بعد أن يصعد.

• • •

كنت أرى أبي وهو يقف في صفوف مع أهل القرية وقد بدا عليه القلق، ذلك أن من يأوي أحدًا مطلوبًا للحكومة سوف يُهدم بيته، إضافة لحبسه، وكان مع القوة الإنجليزية شرطي عربي يتحدث إلى الناس في بوق بحيث تصل كلماته إلى سكان القرية، يهدد ويتوعد حسب ما تلقى إليه الأوامر.

جمع الجنود كل من في القرية عند قهوة أبي زينه، كانوا قد طلبوا من السكان ترك منازلهم مفتوحة، ومن وجد باب بيته مقفلاً فسوف تدخل الشرطة والجنود قسرًا، ولم ينسَ المنادي أن يؤكد أن بيوتهم ومحتوياتها لن تمس، وقال أيضًا: الجندي الإنجليزي معروف بأمانته، فلا تخشوا شيئًا، فابتسم البعض وهمس البعض الآخر لمن يليه.

عندما عاد الناس إلى بيوتهم وجدوا كل شيء فيها مقلوبًا، الأرز مخلوط بالسكر، الطحين مذرى على الأرض كأنه الثلج الأبيض في موسمه، أكياس التبن منثورة في ساحة البيت في بعضها، وفي البعض الآخر خروم كبيرة في الأكياس المكدسة مشروطة بالسكاكين... وفي بيتنا بحث أبي عن جورج فلم يجده، فتش كل محتويات الدار ولكنه لم يعثر له على أثر، فانتابه الخوف والفزع، قالت أمي:

- ربما ذهب إلى ناحية أخرى.

قال أبي:

- الناس هنا لا يعرفونه، ولا يعرف البيوت القريبة منا.

ثم قال بصوت خافت:

- ربما قبضوا عليه ... ثم استدرك ليقول: ولماذا يقبضون عليه، لم يفعل شيئًا معاديًا للإنجليز واليهود.

قالت:

- وماذا يعمل؟

قال أبي:

- إنه لص، يسرق بيض الجيران ودجاجهم.

قالت بغباء:

- يا ويلي، أخشى على دجاجاتنا وكتاكيتنا.

- اقفلي فمك يا امرأة.

فسكتت، ولكني بعد ذلك تبرعت بالنداء:

- أين أنت يا جورج؟، لقد عدنا.

لم نسمع جوابًا، وفي غضون ذلك سمع أبي (خشخشة) في أعلى البيت، فنظر إلى الكوة العلوية بشيء من الفزع وقال بصوت كالفحيح لا يسمعه فيه أحد:

- أأنت في الكوة يا جورج؟

لم يجب جورج، وإنما فتح الكوة بتؤدة وظهرت ثلة شعر بيضاء في مقدمة رأسه أولاً، ثم مدَّ رأسه ونظر يمينًا وشمالاً، فضحك أبي وضحكت أمي مع شدة خوفهم، ثم جاء أبي بالسلم فنزل جورج من مكمنه خائفًا يتلصص... قالت أمي فجأة لأبي:

- لماذا يهرب جورج من الشرطة والجنود؟.

قال لها:

- أغلقي فمك يا امرأة، وإلا أرسلتك إلى الناصرة حيث إخوتك فلا تعودي إلى هذا البيت أبدًا.

- أنت تعلم أني أحفظ الأسرار وأطيعك في كل ما تفعل، ما الذي يجري؟

قال لها هامسًا:

- جورج مطلوب للحكومة.

- يا ويلي، أتريد أن تدمر بيتنا وتذهب إلى سجن عكا؟

- الله هو الحافظ، ونعم به.

وطلب إليها أن تحفظ السر فلا تبوح به، فأومأت مطيعة، وهكذا بقي رأس جورج بعيدًا عن حبل المشنقة.

• • •

كان جورج يرغب فيمن يسلي وحدته ويخدمه فاختارني للمهمة، يرسلني إلى الدكان كي أشتري له سجائر روثمان، كانت العلبة بقرشين، أما الفرط فكان كل خمس سيجارات بمليمات خمس، يحدثني كأنني بلغت سن الرشد، يتحدث عن الإنجليز وعن اليهود وعن فلسطين وعن الاعدامات والحبوسات والظلم، قال لي مرة:

- أنا شيوعي، ولكني أعرف الله.

- وما الشيوعي يا جورج، وهل الشيوعي لا يعرف الله؟

قال بعد أن استدرك أنه أخطأ:

- يا ولد أنا أمزح معك، فلا تأخذ كلامي مأخذ الجد، وهناك شيء آخر، ما تسمعه هنا اتركه هنا.

- وكيف أترك ما أسمع؟.

- بألا تتحدث به لأحد.

- ولا حتى أبي؟

قال ضاحكًا:

- ولا حتى كارل ماركس...

ولم أفهم ما عناه فآثرت الصمت.

كانت أمي تتفقدني في كل حين، ولا تتركني أجلس كثيرًا مع جورج، وكانت تقول لي:

- الصغار لا يجالسون الكبار، عليك أن تعلمني بما تتحدثان به.

قلت وقد تذكرت ما قاله أبي عن جورج:

- نتحدث عن تربية الصيصان والكتاكيت، وكيف تربي الدجاجة فراخها.

قالت مبتسمة ومنكرة لما قلت:

- أي شيء آخر؟

- لا شيء البتة.

• • •

لم أنقطع عن التلصص على جورج في غرفته، قلت لأبي مرة:

- هل جورج يهودي؟

قال أبي:

- اصمت يا ولد، ولا تكثر من الأسئلة.

- يا أبي؛ رأيته يضع صليبًا خشبيًا أمامه ويصلي، أو هكذا ما قلت...

- لم تزل صغيرا كي أخبرك بما أعرف.

قلت بشيء من العفرته:

- من قال لك إني صغير؛ أنا أفهم كل ما يجري، جورج يختبئ من العسكر، وقد قتل أحد الجنود كما سمعت من شيخ المسجد.

ولم أستطع أن أحتمل الصفعة التي رسمها أبي على خدي الأيسر صارخًا:

- اذهب إلى أمك يا ولد، ولا تأتِ إلى غرفة جورج إطلاقًا.

قلت وقد سرحت دمعات على خدي لعنف الصفعة:

- سوف آتي في كل يوم، وسوف أتلصص عليه، وسوف أرسل له الطعام والسجائر.

لحقني أبي وهو غاضب، وهكذا اختفيت بين أزقة الحارة

• • •

سمعت أبي مرة يقول لأمي بصوت خافت:

- اسمعي يا امرأة، الرجل الذي يعيش معنا مناضل يحارب اليهود والإنجليز، وقد اتهم بقتل عسكري بريطاني واستطاع الهرب.

- يا ويلي.

- اصمتي واسمعي، كلفني شيخ المسجد أن أبحث عن أهله في قرية (الزبابدة) وأريد منك أن تؤدي هذه الخدمة، اذهبي إلى قرية الزبابدة وابحثي عن أهله هناك، أخبريهم أن جورج لم يزل حي يرزق، ولا شيء غير ذلك، لا تدلي أحد على مكانه.

قالت بحدة:

- هل تريد أن ترسلني إلى سجن عكا لكي تتخلص مني؟!

ضحك أبي وقال:

- أنت تعرفين أنك أغلى من عيني، ما أقوله لك سر لا يعرفه أحد غيرنا، احملي على رأسك بعض الخضار للتمويه كأنك تبيعينه، واتجهي إلى قرية الزبابدة.

- ولكني لا أعرف القرية.

- اذهبي إلى مدينة اللد أولاً، ومن هناك تأخذي الحافلة إلى نابلس، ومنها خذي الحافلة إلى القرية، فإن لم تجدي حافلة اذهبي إلى خان عبد الله العكر واستأجري حمارا واذكري له اسمي الأخير فقط، قولي له (رباح) عندها سوف يعطيك الحمار، فإن نجحت عودي في الحال، وإن لم تنجحي في التعرف على أحد من أهله، تستطيعين المبيت في نابلس عند سعد النابلسي، فله (مصبنة) على طريق نابلس – بلاطه، ثم كرري أمر البحث، ولا أريدك أن تعودي قبل أن تنجزي المهمة.

قالت أمي:

- ولكن اليهود يقطعون الطريق ما بين اللد والمدن الأخرى.

- لقد أجبرهم الثوار على أن يبتعدوا عن الطريق ولجأوا إلى مستوطنتهم في (عيون الحرامية).

- والأولاد، من يرعاهم؟

- ما تقومين به يا امرأة أغلى من الولد والزوج والدنيا بأكملها.

- على راسي وعيني...

ومن ثم حملت أمي على رأسها سلة وغادرت.

(٣)

بوسيلة أو بأخرى ذهبت أمي إلى قرية الزبابدة بعد أن استأجرت حمارا من مدينة نابلس، لم تستطع الاستدلال على عائلة جورج، سألت كل من في القرية، ورأت أكثر من جورج وعائلاتهم، لكن أحدا لم يدلها على ما تطلب، وأخيرًا ذهبت أمي إلى المختار، وأخبرته أنها تبحث عن عائلة جورج... كانت أمي لا تعرف اسمه الكامل كما نحن أيضًا، سألت المختار عن عائلة جورج فلم تسمع ما يفيدها، قال لها المختار:

- ما الذي تريدينه من عائلة جورج؟

- جورج يعمل في حقلنا بالقرية، وقد أوصاني أن أقول لأهله إنه بيننا وأنه حيٌّ يُرزق، لأنه انقطع عن زيارتهم منذ زمن، وليست هنالك وسيلة اتصال بالقرية لكي يتحدث إليهم.

- هناك سبعة في القرية ينطبق عليهم الاسم، هل تريدينني أن أدور على بيوت القرية هذه وأسألهم إن كان لهم ابن سافر للعمل؟

قالت أمي وقد بدا عليها اليأس والتردد:

- هل تحفظ السر يا مختار؟

- نعم أحفظه وأحفظ أسرار رعيتي.

- أتحلف لي على القرآن أنك تحفظ سر ما أقوله لك؟

ضحك المختار وقال:

- كيف أحلف لك على القرآن وأنا مسيحي؟

- إذن احلف على الإنجيل.

- نعم أحلف...

وحلف لها يمينا على الإنجيل أنه يحفظ سرها، قالت:

- أنا من الناصرة، وزوجي من قرية أخرى، لذا فدون أن تحلف لي على الإنجيل إني أثق بك، فقد عشنا سويًا في الناصرة، ولا فرق بيننا، اسمع، هناك من يختبئ في بيتنا في قريتنا هربًا من الحكومة، إذ يعمل مع الثوار ولفقت له الحكومة قضية لم يفعلها.

قال لها المختار:

- اختصري، فلست قاضيًا إن فعلها أم لم يفعلها، دعينا نتحدث في المهم.

- وقد كلفني زوجي أن أسأل عن أمه وأبيه وأخبرهم بأنه ما زال حيًا.

قال المختار:

- وما تهمته؟

- لا أعرف...

سرح المختار قليلاً وقال لها:

- صفي لي الرجل الذي أرسلك.

- إنه في حدود الثلاثين من عمره، في مقدمة رأسه بضع شعيرات بيضاء، وعلى كف يده علامة على شكل (وحمة).

قال لها وقد حملق في وجهها:

- أنت لا تبحثين عن عائلة جورج، أنت تبحثين عن عائلة يونان.

- لا، إني أبحث عن عائلة جورج...

- هذه قرية صغيرة وكلنا يعرف بعضه بعضًا، لا تخافي، فقد قرأنا في صحيفة فلسطين أن جورج مطلوب لحكومة الإنجليز، ومن التفاصيل عرفنا أنه يونان وليس جورج.

قالت أمي:

- مهما كان اسمه أريد أن أتصل بعائلته.

قال لها المختار:

- على الرحب والسعة، انتظريني هنا وسأعود.

- لا تطل كثيرًا، فإني أرغب في أن أعود هذه الليلة إلى قريتنا.

- هل قريتك بعيدة؟

- نعم إنها مسافة لا تقل عن عدة ساعات.

- لن تجدي وسيلة نقل في هذا الوقت.

- لقد استأجرت حمارًا من نابلس ربطته بشجرة زيتون في باحة بيتك، وسأعود عليه حتى ليلاً.

- يا ابنتي، لا تغامري، فالليل ليس آمنًا، على أية حال، انتظريني هنا وسأعود.

علمت أمي فيما بعد أن مختار الزبابدة كان قسًا، إذ أن قرية الزبابدة كانت أيام الأتراك موئلاً للفارين من حكم الأتراك، وكانت تخبئهم في كنيسة القرية، ومن ثم بنى المسيحيون مسجدا لأولئك واستوطنوا القرية فأصبحوا من سكانها.

بعد ما يقرب من نصف ساعة جاء المختار يصطحب رجلا وامرأة، اندفعت المرأة إلى أمي وقبلتها ومسحت دمعة على خدها بكف يدها، قالت الأم:

- كيف هي صفات الرجل الذي طلب إليك إخبارنا أنه حي؟

وصفت أمي أوصاف (جورج) فاحتضنتها المرأة وأخذت تقبل رأسها ووجهها وقالت:

- تبيتين الليلة عندنا وغدًا تذهبي بسلام.

خضعت أمي للأمر، وطيلة الليل كانت أم يونان (جورج) تسأل أمي، كيف يأكل، أين يختبئ، ماذا يأكل، هل يشعر بالبرد ليلاً، كيف استدل عليكم.

كانت أمي تجيبها بكل ما تعلم، قالت:

- إنه كولد من أولادنا، أو كأخ لنا، نحافظ عليه كما نحافظ على عائلتنا، جاء به شيخ المسجد في القرية وطلب إلينا أن نخبئه عندنا، هو يأكل مما نأكل، ويعامل على أنه ليس ضيفا وإنما صاحب البيت، فلا تقلقي، أعرف ما تعانيه المرأة عندما يختفي ولدها.

كانت أم يونان تحتضن أمي وتقبلها كلما تكلمت، وعندما هيأت نفسها للرحيل وضعت الأم في يدها ثلاث جنيهات فلسطينية وقالت لها:

- أمانة يا أختي أن تعطيها ليونان.

قالت أمي بغباء:

- أنا لا أعرف يونان، أعرف جورج فقط!

ابتسمت المرأة وقالت:

- حسنًا، حسنًا، اعطها لجورج.

وهكذا عادت أمي بعد غياب يومين، كان القلق ينتاب أبي فيخفف عنه جورج, ومع ذلك كانا يلعبان الورق طيلة الوقت، ويتكرر السيناريو في كل مرة:

- صل ع النبي يا جورج، ما تزال تسرق الورق وتربح، دعني أفتش جيوبك فإنك تخفي فيها الورق.

يقول جورج:

- أقول لك دائمًا إنني لا أسرق، فلست لصًا، هذا هو قميصي وجيوبي فتشها، لن ترى شيئًا...

ولم أرَ والدي يفتش جورج أو قميصه أو جيوبه للبحث عن الورق الذي يدعيه.

• • •

اندفعت أمي نحو الباب الخارجي لحوش منزلنا، هرع إليها أبي قائلاً: (قمحة والا شعيرة) وهو مثل فلسطيني يقوله من يقصد: هل الرحلة كانت ناجحة أم فاشلة، قالت له أمي وهي تبتسم:

- قمحة يا أبا النمر.

احتضنها أبي وقبلها أمامي وأمام أخي فوزي وأمام جورج، ثم احتضنها ثانية بقوة... أغلق جورج باب غرفته بعد أن اندفع إليها برفقة أبي وأمي، أما أنا وأخي فوزي، فقد تركونا خارج الغرفة، قلت لأخي فوزي:

- سأتلصص عليهم لأعرف ما سيقولون...

قال أخي فوزي:

- لا تفعل، سأخبر أبي بالأمر.

وهكذا حرمت من أن استمع إلى همساتهم داخل الغرفة...

في الأيام التالية أغدق جورج كرمه علي، كنت كلما أحضرت له علبة من السجائر ينفحني خمس مليمات، فأشتري بها شيئًا حلو المذاق، أما جورج فقد امتنع عن شراء سجائر الروثمان فرادى، وإنما كنت أشتري له علبة كاملة، كنت ألحظ عليه فيما سبق أنه يدخن عدة سجائر يوميًا، فأصبح يدخن علبة بكاملها.

في تلك الليلة، سمعنا عدة طلقات في قريتنا، ثم أصبح الرصاص كالمطر، سأل جورج أبي:

- هل عندك بندقية؟

قال أبي:

- كلا...

- إذن لنصعد إلى سطح المنزل فهناك نستطيع كشف ما يجري. قال أبي:

- بدأ الظلام، ولن نرى شيئا.

- بل نرى اتجاه الرصاص ليلاً لنعرف هل القرية معرضة للهجوم أم الثوار قد هجموا على مستوطنة بتاح تكفا القريبة من القرية...

صعدنا إلى السطح، كان الرصاص متبادلاً، يلمع في ظلمة الليل كالنجوم، فأحيانًا يسقط الرصاص فوق القرية وطورًا يسقط في الجانب البعيد، قال جورج:

- إنهم يهاجمون القرية، هل أنت واثق أن القرية بها سلاح كاف لصد الهجوم؟

قال أبي:

- أعرف كل المسلحين في القرية، إنهم الثوار الذين يذودون عن القرية بكل شجاعة.

قال جورج:

- ربنا يستر.

عند منتصف الليل هدأ صوت الرصاص، وعند الصباح تجمع الناس أمام قهوة أبي زينه لمعرفة ما الذي جرى، قيل: هاجمت ثلة من جنود اليهود القرية ظنًا منهم أنها غير محمية، استطاع بعضهم التسلل إلى القرية، كانت معهم فتاة يهودية، قبض الثوار على الفتاة ويهوديا آخر، ويقال إنهما قتلا، بعض آخر قال: بل سلمت الفتاة واليهودي إلى حسن سلامة، (كان قائدا للثوار في القرية)، ولا نعرف ما الذي جرى بعد ذلك.

في الأيام التالية هاجم اليهود القرية في كل ليلة تقريبًا، استطاعوا احتلال القرية من الجنوب وفيها مقام العباس هناك، وأخذوا يتحدثون بالأبواق للسكان أن يرحلوا بسلام، قالوا: نحن لا نريد أن نقتل أحدا من القرية، وطلبوا إليهم مغادرتها، ولن يتصدى لهم أحد في خروجهم.

أصاب الرعب أبي وأمي، أما جورج فقد وضع يده على خده وأخذ يفكر، قال أبي:

- نرحل وإلا قتلونا.

قال جورج:

- لن أرحل، سأبقى هنا وليحدث ما يحدث...

قال أبي:

- معنا أطفال يجب حمايتهم، الرحيل أحسن لنا.

قال جورج:

- حسنًا سأفكر الليلة بالأمر.

(٤)

يقال إن جورج ليس هو جورج، أصبح أبي يناديه يونان، قال له يومًا:

- لماذا غيرت اسمك يا جورج، عفوًا يا يونان؟.

- هو تمويه كي لا يعرفني المحتلون.

قال أبي:

حسنًا... أنا اسمي علي، لو غيرته إلى عبد الله هل يفيد ذلك في شيء؟

ضحك يونان ملء شدقيه وقال:

- لكنك مزارع أولاً وسائق سيارة ثانيًا، ليس لك يدا فيما يجري.

قال أبي:

- أترى إصبعي الخنصر المقطوع أمامك؟

قال يونان:

- كنت أود أن أسالك عنه.

- في ثورة ٣٦ تجندت مع الثوار، اشتريت بندقية بعد أن بعت كل ذهب زوجتي، وفي يوم كنت أنظف البندقية ببعض الخرق وسلك طويل أدسه في ماسورتها، فسقطت الخرقة داخل السبطانة، حاولت إخراجها فلم أفلح، لكن أحدا ناداني فنسيت أمرها كليًا، وبعد أيام هاجمنا الإنجليز في أحراش يعبد، فأطلقت النار فإذا بماسورة البندقية تنفجر، فطار إصبعي الخنصر كما ترى، ومنذ ذلك اليوم لم أستخدم البندقية.

قال يونان مبتهجًا:

- إذن كنت مع الثوار يا أبا النمر؟.

- سبقتك بعدة سنين، على أية حال حدثني عن تهمتك بالتفصيل.

- بما أنك قد كنت مع الثوار فلا بأس، إني أثق بك...

بعد أن تنهد يونان أكمل:

- كنت أعمل لدى مزارع على أطراف مدينة اللد، جاء بعض الجنود الإنجليز ومعهم بعض اليهود المسلحين إلى المزرعة يومًا، وطلبوا من صاحب المزرعة وعائلته أن تغادر وإلا قتلوا جميعًا، فلما رفضوا قام أحد جنودهم بسحب امرأة تضع على رأسها شالاً أبيض اللون مطرزة حوافه، وقاموا بإلقائها أرضًا وأخذ أحدهم يدوس على بطنها، بينما رجلها كان بين أيديهم يشبعونه لكمًا، رأيت ذلك ففار دمي، وكنت أضع مسدسي في (قمبازي) كطفل رضيع لا يفارقني، ودون أن أفكر اتجهت نحو المرأة بخطوتين وأطلقت النار على الجندي الذي كان يدوس بطنها، فوقع صريعًا، ثم أطلقت رصاصة أخرى فأصيب الجندي الذي كان يلجمها ويمنعها من التحرك فأصيب في يده فألقى سلاحه، ذهبت كالسهم إلى سلاح الجندي الصريع والتقطته وهربت، كان بعض الجنود قد دخلوا إلى الغرفة التي تؤوينا وقت حر الظهيرة لتفتيشها، فلما سمعوا الطلقات هرعوا جميعًا، أطلقوا علي بعض العيارات النارية، لكني كنت قد اختفيت بين الأشجار فلم يعثروا علي، ثم واصلت طريقي مشيًا على الأقدام حتى وصلت إلى بعض القرى، وأخيرًا إلى قريتكم، ولا أدري ما الذي حدث لصاحب المزرعة وزوجته بعد ذلك.

سأل أبي:

- وكيف استدلوا على اسمك؟

قال يونان:

- ربما أمسكوا بصاحب المزرعة فأشبعوه تعذيبًا فاعترف باسمي، وهكذا تراني مشرَّدًا منذ ذلك اليوم، ومما أكَّد لي ظنوني أن صاحب العمل كان يعرفني باسم جورج، وعندما نشرت الجرائد اسم جورج، عولت على أن أبقي اسمي كما أذيع، غير أن بطاقتي تقول إن اسمي يونان.

• • •

جمع أبي وأمي بعض الملابس في عدة بقج، حملوني بقجة صغيرة، أما أخي فوزي فكان أكبر مني فحملوه أخرى أكبر قليلاً، كانت أختي فوزية صغيرة السن لا تتجاوز السنوات الثلاث، أما أخي غازي فكان لم يزل رضيعًا حملته أمي.

قال أبي ليونان:

- دعنا نغادر سويًا، إن معي سيارة تعرفها أذهب بها إلى قرية سلمه مرة في الأسبوع، لمقابلة صاحب شركة باصات سلمه التي أعمل بها، وقد أعطانيها لكي أنقل أولاده ما بين سلمه ويافا أثناء دراستهم، ولا أدري كيف أعيدها له، فاليهود احتلوا بيت دجن ويازور وأغلقوا طريقنا مع يافا، دعنا نستعملها في رحيلنا.

لم يوافق يونان، قال لأبي:

- اذهب وسأتدبر أمري، سألتحق بالثوار.

- لقد احتل اليهود نصف القرية تقريبًا، ولم يبقَ لنا إلا أن نغادر.

- اذهب مصحوبًا بالسلامة أنت وعائلتك، إن معي سلاحا أخبئه في مكان ما يمكنني استخدامه.

ولم يقتنع يونان بالرحيل، فقام أبي بالمغادرة...

• • •

حطت الرحال بنا إلى معسكر رحل عنه الإنجليز اسمه (معسكر بيت نبالا) لم نستطع العيش فيه لأن الإنجليز عند رحيلهم وضعوا مادة الكاز في الآبار التي كانوا يستخدمونها، فلوثوا الماء، ولا ماء فيها صالح للشرب يمكن أن نستخدمه.

في غضون ذلك، سمعنا في الأخبار أن إطلاق النار توقف بين الطرفين، وأن الأمم المتحدة أصدرت قرارا بذلك، قال أبي لأمي:

- إنها حياة صعبة، دعينا نعود إلى قريتنا...

قالت أمي:

- لا، إني أخاف على الأولاد، دعنا نذهب إلى الأردن، إن الجيش الأردني يساعد الناس على المرور عبر الأردن دون أن يمنعهم، أو هكذا يشاع...

وهكذا بقينا في معسكر بيت نبالا فترة أخرى من الأيام،

في غضون الأيام التي تلت التحق بنا في المعسكر خالي حسين وزوجته التي لم تنجب، استدللنا عليه بالصدفة وهو يحاول إيجاد الماء النظيف لكي يشرب، كان قرب البئر الملآى بمادة الكاز وكان بعض الرجال يتحاورون عن كيفية الوصول إلى ماء نظيف، وهكذا التحق بنا.

لم يكن الماء هو ما ينقصنا فقط، بل الطعام أيضًا، لم تكن هنالك بقالات يمكن أن تبيعك شيئا، فالكل مشغول بنفسه، قالت أمي لخالي في ليلة وقد قرص الجوع أمعاءنا:

- لقد تركنا في بيتنا معزة صغيرة السن لم تزل على ما أعتقد مربوطة إلى جانب قن الدجاج، إن إطلاق النار قد توقف، ما رأيك يا حسين أن تذهب للقرية فهي على بعد قليل، ثم تأتي لنا بالمعزة سواء مذبوحنةة أو تحملها إلينا حية...

تردد خالي في الإجابة فلم تلزمه أمي بذلك، ثم جاع وزوجته فقال لها بعد فترة:

- حسنًا، سأذهب إلى القرية، ولكني أوصي أن تحافظوا على زوجتي إذا ما حدث لي مكروها.

- في عيوننا.

أصر خالي على أن يأخذني معه إلى القرية، كان عنده عجلة جاء فيها إلى المعسكر وزوجته خلفه تلتصق به، قال لأمي:

- سوف أخذ العجلة معي، سأضع (وليد) أمامي والعنزة أربطها خلف مقعدي.

قالت أمي خائفة:

- لماذا تأخذ الولد معك، ابقه هنا.

قال خالي مبتسمًا:

- أنت تعرفينني أخاف من خيالي، أريد من يسليني حتى ولو كان طفلا.

قالت لي:

- أتذهب مع خالك إلى بيتنا؟

قلت على الفور:

- نعم، أذهب...

وهكذا أخذ خالي يستعد للذهاب عندما يطلع الفجر.

قبل أن تبزغ الشمس وكزتني أمي بشيء من الرفقة وقالت:

- هل تذهب مع خالك يا ولد؟

انطلقت من البطانية التي أنام عليها مثل السهم، فها أنا يمكن أن أرى بيتنا الذي أحبه، قلت لها:

- نعم، أذهب معه.

- أوصيك أن تأتي إليَّ بصورة لأبي وأمي، إنها تحت المخدة التي أنام عليها، جئت بالمخدة ولكني نسيت الصورة.

- سأحفظ ذلك جيدًا.

• • •

في طريقنا إلى القرية كنا نسمع هسيسًا صامتًا ينبئ ألا حياة هنا، لا نأمة ولا صوتا على طريق اللد العباسية، الطريق خال، كأن الدنيا كلها لم يكن فيها من يتنفس، ظهرت لنا بعض بيوت القرية عن بعد، لا رصاص ولا قتال، أما الآذان فكانت تتلقى صريرا يكاد يخرقها، وعن بعد لاحت لنا سيارة عسكرية فانتحينا إلى جانب الطريق المشجر مع العجلة وقال لي خالي:

- يبدو أنها جيب عسكرية، علينا بالاختفاء.

دخلنا في الطريق المشجر بين الحشائش الطويلة التي كان فيها بعض يباس، مما ينبئ أن الصيف قد حرقها أو بعضها، وكمنا هناك.

(٥)

وصلنا إلى قرية العباسية، كانت الشوارع والأزقة فارغة من الناس، سوى بعض القطط والكلاب التي لم تجد ما يقيم أودها، فانتشرت في الشوارع تموء وتعوي وتتلوى جوعًا، فتحنا الباب الرئيس لبيتنا والذي يشرف على حوش المنزل، لم يكن في القرية أحد، ولم نصادف في طريقنا ما ينبئ عن وجود حياة، قال لي خالي:

- لقد رحل الناس جميعًا، ولا يوجد أي عسكري يهودي في القرية.

قلت له على الفور:

- لقد بقي جورج في بيتنا، صرخت بأعلى صوتي، أين أنت يا جورج؟

لم يجبني غير الصدى، فقد كانت كلماتي تعيدها الريح إليَّ دون جواب، قال لي خالي:

- اخفض صوتك يا ولد، من هو جورج هذا؟

- جورج كان مختبئًا عندنا في الغرفة الجانبية للدار، أريد أن أبحث عنه في غرفته.

قال خالي:

- أنت تكذب يا ولد.

- والله، جورج تركناه هنا.

- لم تقل لي أمك أن هناك من هو في البيت.

- ربما نسيت، أنا أتذكر ذلك جيدًا، لم نغب عن البيت سوى بضعة أيام.

- إذن لنذهب إلى غرفته.

دلفنا إليها فإذا بها خالية، نظرنا إلى الناحية الخلفية من الحوش فإذا بالمعزة مربوط عقالها في وتد تحاول أن تتحلل منه، لأنها لم تذق طعاما خلال أيام، قلت:

- أأحضر لها بعض التبن لكي تأكل؟

- ولماذا تأكل، لقد جئنا لذبحها.

تابع خالي القول:

- لقد نسينا إحضار سكين معنا لنذبح العنزة.

- في المطبخ عدة سكاكين، أأحضر لك واحدة؟

- بل سأذهب أنا حتى لا تجرح نفسك، ابق هنا بجانب العنزة حتى أعود.

جاء خالي بسكين طويلة حادة، اقترب من العنزة، كانت تنظر إليه كأنما تستعطفه أن يطعمها، أشفق عليها وقال لي:

- اذهب إلى كيس التبن وأحضر بعضه كي تتبلغ العنزة ببعض الطعام.

ذهبت فورًا وعثرت على قفة فارغة قرب قن الدجاج، وضعت فيها بعض التبن، هرعت العنزة إلى القفة وأخذت تلتهم الطعام بنهم، قال خالي:

- لنتركها حتى تشبع، لكنه استدرك، لن نبقى هنا طويلاً...

حل رباط العنزة وطرحها أرضًا فأخذت تمأمىء بحرقة، قال خالي:

- لم أذبح طيرا أو حيوانا في حياتي، اسمع يا ولد، اترك العنزة في سبيلها، واملأ القفة بالتبن، ودعنا نغادر.

قلت ببراءة:

- وما الذي سنأكله؟

- الله هو الرازق، دع العنزة في حوش الدار دون أن تربطها، علها تعيش زمنا آخر.

- ووصية أمي؟

- سنعرج على بعض بيوت الجيران إذ ربما وجدنا فيها بعض الطعام.

ذهبت إلى مطبخ بيتنا فإذا برزمة من الخبز الطابوني فيها قد أصاب بعضه العفن، قال:

- هاته يا ولد، العفن لا يضر.

ومن ثم أغلقنا باب دارنا الخارجي وذهبنا إلى بيت الصبي أحمد، وجدنا فيه بعض الطعام، كسرة خبز، أو معلبة سردين أو غير ذلك، ثم ذهبنا إلى قطعة الأرض التي كان الجيران يزرعونها في حوش دارهم فوجدنا طماطم حمراء تتدلى من عروق الزرع، قطفناها كلها ووضعناها في كيس من الخيش، ومن ثم ربط خالي الكيس في مؤخرة العجلة وقال:

- هيا أسرع، لا نريد أن نبقى هنا أكثر من هذا الوقت.

كانت المسافة بيننا وبين الطريق التي تصلنا بالمعسكر تتجاوز بعض الكيلومترات، كنت فرحًا بالرحلة، سمع خالي صوت سيارة من البعيد، قال:

- دعنا نختبئ...

ولم يكمل عبارته حتى توقفت قربنا سيارة جيب عسكرية، بها بعض الجنود، قال خالي:

- هذه مصيبة، هل هم يهود أم إنجليز.

- لا أعرف.

- يا ويلنا، بل هم من اليهود، أعرفهم من لباسهم.

- دعنا نهرب.

- إنهم يروننا، فإذا هربنا فسوف يطاردوننا.

نزل جنديان واتجها إلى خالي وقال أحدهما كلاما بالعبرية لم يفهم منه خالي شيئا، صرخ الجندي بخالي ولكنه لم يفهم ، قال خالي بالعربية، جئنا لنأخذ بعض الطعام، ويبدو أن الجندي لم يفهم أيضًا، رفع الجندي سلاحه في وجه خالي، صرخ به أحد الجنود القابعين في سيارة الجيب المكشوفة فهمنا منه أن يقول: اتركه لشأنه، واستدللنا على ذلك بإشارة من يده أن يعود إلى الجيب العسكري، فأطاع وخطى بضع خطوات، غير أنه عاد إلينا بعد أن خطى، ووضع البندقية أمام وجه خالي وأطلق النار، وقع خالي صريعًا، فأخذت أصرخ، وترافق ذلك مع صراخ العسكريين في السيارة، الذين فهمنا من صراخهم عليه وإطلاق الشتائم أنهم استاءوا لما فعل زميلهم، هرع الجندي المجرم إلى السيارة وغادر العسكر مسرعين باتجاه الشارع المؤدي إلى يافا.

بقيت وحيدًا أبكي، لا أحد هنا، العجلة ملقاة على قارعة الطريق ولم أكن أقدر على ركوبها بفعل المفاجأة التي حدثت، وبفعل أنني لم أركب عجلة في حياتي، كنت أنظر إلى الدم الذي ينزف من رأس خالي ورفرفة الموت تجتاحه كأنما هو شاة تذبح، صرخت:

- خالي، هل أنت حي؟

لم أسمع جوابًا، عدت ثانية للبكاء، كان الشارع خاليًا، لا سيارات ولا حتى نأمة حياة.

أمضيت قرب خالي بعض الوقت زاد على نصف ساعة تقريبًا، أخيرًا توقف خالي عن الحركة، أدركت أنه مات، وأن أطرافه التي كانت تتحرك قد غدت هامدة، زاد بكائي، وجلست إلى جانب الجثة على قارعة الطريق.

كان خالي قد تمدد بقامته الطويلة في جانب الطريق بعيدًا عن سير السيارات التي ربما تأتي، لم أرَ في حياتي رجلا يموت أمامي، ولا حتى حيوانا.

مضى بعض الوقت قبل أن تظهر لنا سيارة جيب عسكرية أخرى، فهربت نحو الوادي غير العميق مختفيًا، غير أن المنحنى ما بين السيارة التي ظهرت وبيني بضع خطوات فرآوني، توقفت السيارة فنزل منها عسكريان واتجها نحوي، قال أحدهما بلغة عربية مكسرة:

- ما الذي جرى؟

قلت له مرتجفا:

- لقد قتله الجنود اليهود.

ابتسم ثم قال:

- كيف عرفت أنهم اليهود؟

- لم أفهم منهم شيئًا عندما أوقفونا وتحدثوا لنا .

ذهب العسكري إلى الجيب وأحضر لي بعض البسكويت، ثم سحب جثة خالي إلى الوادي الضيق الذي لا يزيد اتساعه على متر واحد وقال:

- أين أهلك يا ولد؟

- إنهم في معسكر بيت نبالا.

- ومن الذي جاء بك إلى هنا؟

- جئنا نبحث عن الطعام.

نظر العسكري إلى العجلة وقال:

- ما الذي يحويه الكيس المربوط فيها؟

- إنه بعض الخبز والطماطم.

- هذه علبة من البسكويت تأكلها حتى لا تموت جوعًا، نحن ذاهبون باتجاه الكامب ولكننا لن ندخله، اصعد إلى السيارة فنوصلك إلى أقرب طريق للمعسكر الذي وصفته.

لم أجد بُدًا من الصعود إلى السيارة، قلت للعسكري:

- ألا نحضر خالي؟

- خالك قد مات، ولا فائدة من نقله معنا، إضافة إلى أننا نستعجل الرحلة للوصول إلى وحدتنا.

- هل أنتم من الإنجليز؟

- نعم، نحن إنجليز، ولا نقتل إلا من يقاتلنا.

- ولكن خالي لم يقاتل أحدا.

- لأن الحقد هو الذي قتله...

ومما فهمته من لغته العربية المكسرة قوله: هذه مذبحة، نحن لا نقتل غير المسلحين، وهكذا صمت، ودارت عجلة السيارة متجهة إلى البعيد.

(٦)

كانت أمي تذرع الشارع القريب من مقر سكننا في الكامب/ المعسر جيئة وذهاب، فقد دامت رحلتنا أكثر مما تتوقع، وعندما رأيتها عن بعد زاد بكائي، شاهدتني على بُعد منها ما يقرب من نصف ميل، هرعت إليَّ راكضة.

عندما كنت في السيارة الجيب مع الإنجليز، رأينا بعض الجثث ملقاة على قارعة الطريق، خمنت أن الجيب العسكري الذي قتل خالي قد فعلها مع أناس آخرين، إحدى تلك الجثث كانت مشوهة في الوجه ومنزوع قميص الضحية ويغرق صدره بالدم، كانت السيارة الجيب تتباطأ عندما ترى بعض الجثث ملقاة على قارعة الطريق، كانوا يتحدثون بالإنجليزية ولم أفهم مما يتحدثون به شيئا، ولكنهم على ما لمست من كلماتهم كانوا غاضبين، تذكرت خالي فبكيت، قال لي العسكري:

- لا تبك يا ولد...

وما فهمته منه أنه قال: هذه مذبحة مريعة، ثم تابع أحدهم بعربية مكسرة لم أفهم منها شيئًا في البداية، ثم أعادها لي مشيرًا إلى المعسكر الذي بدا لنا عن بعد:

- هل تقيمون هنا؟

- أعتقد ذلك.

- تعتقد أم أنت متأكد؟

- أليس هذا معسكر بيت نبالا؟

- نعم.

- إذن هو مقر إقامتنا.

- سنوصلك إلى أقرب طريق للمعسكر، ومن ثم تتابع...

نزلت من السيارة العسكرية ولم يكن معي شيء، كيس الطماطم وما يحويه بقي قرب جثة خالي، إضافة إلى العجلة، وعندما رأيت أمي عن بعد، أخذت أركض إليها بكل ما أوتيت من قوة، وصلت إليها فاحتضنتني وصرخت:

- أين خالك يا ولد؟

قلت لها:

- خالي مات، قتله اليهود ونحن في الطريق إلى المعسكر...

صرخت، لطمت، جلست إلى جانب الشارع وأخذت تحثو على رأسها التراب، صارخة:

- يا ويلي، أنا التي أرسلته للموت.

بعد فترة توقفت قربنا سيارة مدنية في أعلاها ربطت بعض البقج والشنط، نزل منها رجل يلبس حطة وعقالا وقال لها:

- ما الذي يبكيك يا امرأة؟

ثم نزلت منها امرأة تلبس ثوبا مطرزا بخيوط حريرية، اقتربت من أمي وقالت:

- هل حدث لك مكروه؟

لم تجب أمي، نظرت إلى المرأة بشيء من الريبة وقالت ببراءة:

- هل أنتم من اليهود؟

قالت المرأة:

- ألا ترينا جيدًا؟

قالت أمي:

- إنهم يتنكرون بلباس العرب لكي يقتلوننا...

- ولكننا من العرب، نحن من قرية يازور.

اطمأنت أمي وقالت باكية:

- لقد قتلوا أخي، أرسلته لجلب الطعام من قرية العباسية مع ولدي، وها أنت ترينني مع الولد دون الأخ.

قالت المرأة مواسية:

- احمدي ربك على أن ولدك بخير.

كانت المسافة بيننا وبين المعسكر تبعد أقل من نصف ميل، قال لنا الرجل:

- نحن ذاهبون إلى المعسكر، اصعدوا معنا إلى السيارة كي نوصلكم إلى مقر إقامتكم.

كانت السيارة تحوي في داخلها ثلاثة من الأطفال إضافة إلى أمهم، وكان الرجل سائقًا، لم تتوقف أمي عن البكاء تارة والصراخ تارة أخرى، والرجل والمرأة يواسيانها، قال الرجل:

- لقد ارتكبوا مذبحة مريعة في يازور، القليل من الناس نجو، الحمد لله أننا نمتلك سيارة قديمة ولكنها تفي بالغرض، استطعنا أن نهرب ونصل إلى المعسكر.

لم نجد في البيت الذي سكناه في المعسكر أحدا سوى أخي غازي وأختي فوزية التي لم تكن تتجاوز السنين الأربع، كان أبي يبحث عن الماء للشرب مصطحبًا معه أخي فوزي، دلفت أمي إلى الدار وهي تندب وتصرخ، جاء بعض الناس ممن كانوا يشاركوننا مأساتنا إليها وأخذوا يهدئونها.

عاد أبي بشيء من الماء، لم يكن يعلم بما حدث وعندما علم تحجرت الدموع في عينيه وكأنما أصابه الخبال، قال لها برفق:

- البكاء لا يفيد، الدماء تنتشر في كل مكان، هذا نصيبه.

قالت أمي:

- لقد أرسلته للموت بنفسي...

قال أبي:

- اطلبي له الرحمة، الناس في بلاء عظيم.

رحل القوم من حولنا، كان كل شيء هادئ، نحمد الله على أن الأضواء تعمل، كان هناك كهرباء، لقد ترك الإنجليز عند رحيلهم ماتور الكهرباء يعمل بكل ضجته، قال أبي:

- هي ليوم أو يومين، وعندما تنتهي المحروقات من الموتور فإنه سوف يتوقف، وتابع لأمي، على أية حال أنا أفكر بالرحيل، اليهود سوف يصلون إلى هذه المنطقة، لا زاد لدينا ولا ماء، الناس تتوجه إلى الحدود مع الأردن، إذا واصلنا رحلتنا فإننا سنصل إلى منطقة نابلس أو قراها في عدة ساعات...

قالت أمي:

- أنا أعرف المسافة من هنا إلى نابلس، فقد ذهبت إلى عائلة جورج في قرية الزبابدة مرة فلا يمكن أن نضل الطريق.

قال أبي:

- يا امرأة، أنسيت أنني سائق وأعرف الطرقات جيدًا؟!

وهكذا بتنا ليلتنا في المعسكر، ظلت أمي ساهرة طيلة الليل، تارة تبكي وأخرى تنوح وثالثة تصرخ، أما زوجة خالي التي انضمت إلينا فقد كانت تبكي بصمت، دموعها تسح على خديها كالمطر، ولم تكن تعرف هذه الناحية، إذ أنها من الناصرة، ولم تأتِ في مجمل حياتها إلى هذه الجهة.

قالت أمي لامرأة خالي:

- تذهبين معنا يا فتحية أينما نذهب، أخي رحمه الله قد مات، أصبحتِ منذ الآن من عائلتنا، أينما نذهب تذهبين، ما يجري علينا يجري عليك...

قالت امرأة خالي وهي تمسح دموعها:

- أعرف ذلك، لا أريد أن أسير في ظلمة هذا الليل أو صباحه وحدي، فالطرقات ليست آمنة، ما يجري عليكم يجري علي...

ثم قامت من فورها إلى يد أمي وقبلتها فقالت أمي:

- لا تفعلي ذلك يا فتحية، أنا أحبك مثلما أحب أولادي...

ثم أدركت أمي أنها لم تزل صبية فتابعت:

- أو مثل أختي.

كنا نسمع خلال الليل بعضا من تحركات الناس خارج مكان إقامتنا، خمن أبي أن الناس يرحلون، إنهم خائفون أن يأتي اليهود إلى هذه الناحية فيقتلوننا، وقبل أن يبزغ الصباح، استفاق أبي وأمي ووكزانا وكزًا خفيفًا كي ننهض...

جمعنا بعض حاجياتنا الخفيفة، لم يكن معنا طعاما، كانت هناك زجاجة ملآى بالماء، نظرنا فإذا المعسكر أوشك أن يخلو من سكانه، الناس رحلوا في الليل، قال أبي:

- على من يريد الشرب أن يتبلغ بنقطة أو نقطتين، الطريق طويل، ولا ماء أو طعام لدينا، نستطيع الصبر على الطعام، أما الماء فيجب أن تظل هذه الزجاجة على حالها إلا قليلاً ريثما نصل إلى الحدود الأردنية.

سارت بنا سيارة أبي التي كانت ملكا لرجل من قرية سلمة، لم يستطع أبي إرجاعها إليه بسبب قطع الطرق ما بين بلدتنا وقرية سلمة، فتلك القرية تقبع قرب يافا، وليس بينها وبين المدينة سوى أقل من عشر دقائق، أما قريتنا فقد كانت بعيدة بما يقرب من خمسة أميال.

قال أبي بعد قليل:

- سمعت البارحة أن اللد لم تزل في أيدي الجيش الأردني، فقد دخلها مدافعًا عنها...

قالت أمي:

- ومن يضمن لنا ذلك، إن الشائعات تنتشر من بيت إلى آخر وأخيرًا يثبت كذبها...

قال أبي:

- سمعت الأخبار يتناقلها الناس من راديو لبنان يوم أمس، يقولون إن الجيش الأردني استرجع اللد والرملة، دعونا نذهب إلى هناك، فإن رأينا ما يريب نواصل طريقا آخر بعيدًا عن المعارك.

قالت أمي:

- بل نواصل طريقنا نحو الحدود، إذا كان الجيش الأردني قد احتل اللد والرملة، فهذا يعني أن هناك معارك سوف تقوم بينهم وبين اليهود، ولا نضمن أن نقع بين هذا وذاك فنقتل.

قال أبي بعد تفكير قصير:

- معك حق يا امرأة، على بركة الله نهاجر.

سارت بنا السيارة بسرعتها البطيئة، وكان أبي خائفا حد الموت أن ينفذ وقودها، لأنه لا يوجد محطات للوقود تفتح في ذلك الوقت، قالت أمي فجأة:

- يا إلهي، كيف نستطيع أن نواصل الرحلة إذا لم يكن هناك وقود...

وكأنها اكتشفت أفكار أبي فقال:

- صل ع النبي يا سليمة، فقط ما لنا غير الدعاء.

وصلنا إلى أول نقطة يقف فيها الجيش الأردني، قاموا بتزويدنا بالماء، وبعض الطعام، وأشاروا لنا على طريق قصير يوصلنا إلى نابلس أو ضواحيها...

أخيرًا وصلنا إلى قرية حوارة، وهي تقع ما بين نابلس والقدس، اشترى أبي خيمة تأوينا، بتنا ليلتنا كأننا من الأموات، جاء الكثير من أهل حوارة إلينا في صباح اليوم التالي، أعطونا طعاما، خبزا وبعض الزيت والزعتر، أحضرت النساء لنا أباريق من الشاي الساخن، ساعدنا الجميع في نصب الخيمة على جانب من الطريق المؤدي إلى سلفيت، وفي الليل؛ حدث ما لم يكن في الحسبان...

في ظلام الليل كنا ننام مثلما الأموات، فقد هدنا التعب نتيجة الرحيل، وعندما أفقنا في صباح ذلك اليوم كانت الخيمة فارغة، فقد هاجمنا لصوص أثناء الليل وسرقوا حاجياتنا القليلة مع ما يستتبع ذلك من طعام قليل اختزنه أبي لمؤونتنا، صرخ أبي وبكت أمي؛ قالت:

- يا ويلنا، حتى ملابسنا التي أتينا بها قد سرقت...

قال أبي:

- لا مكان لنا هنا، يجب أن نرحل إلى مكان آخر...

قالت أمي:

- هل من سبيل للبقاء لعدة أيام، لقد أتعبنا السفر، وتابعت؛ لماذا لا تخبر الحكومة علها تعثر على اللصوص؟

قال أبي:

- يقول الناس إن هناك (الفرسان) بدلاً من الشرطة.

قالت أمي:

- أيًا كانوا، أهم من الحكومة أم لا؟

- بلى...

- إذن أخبرهم...

ذهب أبي إلى مركز الفرسان الذي يبعد عن القرية مسافة أقلها ثلاثة أميال، قالوا له، اللصوص ينتشرون في كل مكان، إذا ما استدللنا على اللصوص سنخبركم، عاد أبي خاوي الوفاض يندب حظه العاثر في السير لمسافات طويلة، إذ أن سيارتنا قد نضبت من الوقود وليس في القرية ما يمكن أن نزودها بالمحروقات.

جاء أهل القرية وزودونا بالقليل من الطعام، كان أبي في الليلة الماضية قد تفقد جيبه فإذا بالنقود قد قربت من الانتهاء، وفي غضون اليأس قال أحد جيراننا في القرية:

- أرى أن عندكم سيارة أمام الخيمة، هل تبيعونها؟

قال أبي:

- إنها وسيلتنا للتنقل والرحيل، ربما وجدنا المحروقات فنشتريها كي نواصل الرحيل.

قال الرجل:

- أستطيع شراءها إن أردت...

ساومه الرجل عليها فقال أبي:

- أبيعها بثلاثمائة دينار.

- ليس معي سوى مائة وخمسين، إن أردت أحضرت المبلغ لك في الحال...

فكر أبي قليلاً وقال:

- هي لك...

قالت أمي:

- يا ويلنا، تبيع السيارة وهي التي توصلنا إلى مبتغانا إذا ما أردنا الرحيل؟

- يا امرأة، إنني لا أمتلك ثمن محروقاتها.

تدخلت زوجة خالي فتحية وقالت:

- يا عمتي، نستطيع السير على أقدامنا، الجوع كافر.

وهكذا قبض أبي مائة وخمسين دينارا ثمنًا لسيارة كانت تساوي ألفا على الأقل، فبتنا كالعراة لا نمتلك شيئًا سوى بضع دريهمات في جيب أبي.

مَن اشترى السيارة عاد ثانية في اليوم التالي ليسأل أبي:

- هل أنت سائق ماهر؟

قال أبي:

- إني أسوق السيارة منذ بضع سنوات...

قال الرجل:

- إن شركة التميمي في نابلس ترغب في توظيف سواقين لحافلاتها التي تعمل ما بين نابلس والقدس، أريد أن أذهب إلى هناك، فهل ترافقني علهم يجدون لك وظيفة في الشركة.

فرح أبي وقال:

- ليتك تفعل...

وهكذا سافر أبي في سيارتنا المباعة مع الرجل إلى مدينة نابلس.

عاد أبي في المساء وقد انفرجت أساريره، قال لأمي:

- لقد وجدت وظيفة في شركة باصات التميمي بثلاثين قرش يوميًا.

فرحت أمي وقالت:

- أخيرًا يمكن أن تأتينا بعض النقود إضافة للنقود التي وفرتها من ثمن السيارة، متى تبدأ؟.

- في الغد...

تابعت أمي:

- ولكننا نقيم بعيدًا عن نابلس، هل تذهب يوميًا إلى هناك فتبعثر النقود أجورا للسيارات؟ لماذا لا نرحل ونسكن مدينة نابلس؟

قال أبي:

- يا امرأة رغم أنك غبية ولكن فيك بعض الدهاء، سأفكر في الأمر، وتابع، لقد طلبت الشركة مني أن استبدل الرخصة الفلسطينية بأخرى أردنية رسومها أربعين قرش...

- فليكن.

ذهب أبي إلى نابلس، واستبدل رخصته بأخرى أردنية، ثم غاب أبي حتى أظلمت الدنيا فقلقت أمي، وفي المساء عاد أبي وهو يحمل أكياسًا ورقية تحوي عنبا وتينا وبعض الفواكه، فرحت أمي وقالت:

- هذه بداية الطريق، سوف نعيش.

قال لها أبي:

- هل تظنين أنك باقية هنا إلى الأبد، غدًا تأتي الجيوش العربية فتعيدنا إلى العباسية.

- حلم الجوعان عيش...

وضحك أبي ملء شدقيه.

بعد شهر من العمل استأجر أبي لنا بيتا بغرفتين؛ دفع أجرته الشهرية دينارا بكامله، كان أبي يعود من عمله وقد امتلأ جرابه بالعديد من العنب والفواكه، سألته أمي:

- لماذا تبذر نقودك على شراء الفواكه، اعقل يا رجل.

- يا امرأة، أنا لا أدفع نقودا لقاء الفواكه، الكثير من الفلاحين لا يمتلكون النقود فيضطرون للركوب لقاء بعض الفواكه.

قالت أمي فزعة:

- أتسرق الشركة يا علي؟

- معاذ الله يا امرأة، إني أخبرهم بذلك فيقولون لي هي لك ولأولادك.

بعد أن أمضينا ثلاثة أشهر في السكن الجديد، رأى أبي بثاقب نظره أنه يستهلك بعض النقود في ذهابه إلى مدينة نابلس والعودة منها إلى حوارة، وفي ليلة سمعت تحاورهما أنه يريد السكن في نابلس قريبًا من الشركة فلا يخسر نقوده، وافقت أمي على ذلك، أما نحن الأطفال فقد فرحنا لأننا سنسكن مدينة سمعنا عنها كثيرًا ولكننا لم ندخلها.

في يوم جمعنا حاجياتنا مما تبقى لنا وهاجرنا إلى مدينة نابلس، بحث أبي عن مكان مناسب لنصب الخيمة فلم يجد بُدًا من السكن قرب سكة الحديد التي تعطلت برحيل الإنجليز ولم تعد هناك قطارات تصفر في ظلام الليل، أقمنا الخيمة قرب مدرسة وكالة الغوث التي نصبت خيامها بالقرب منا، دخل أخي فوزي المدرسة، ثم تبعته بعد أشهر...

في غضون ذلك جاء الشتاء، كان بارد جدًا لدرجة أننا كنا نلتصق بعضنا بالبعض طلبًا للتدفئة، ثم جاءت بعض العائلات المهاجرة فسكنت بالقرب منا، تعرفت أثناءها على عطاف، طفلة في مثل سني، كنا نلعب سويًا ولا ندري بما جرى ويجري، ولا نذهب إلى خيامنا إلا عندما تتفقدني أمي ويتفقدها أهلها، فنشأت بيننا علاقة طفولية رائعة لا أزال أذكرها حتى اللحظة.

بقينا على هذا الحال إلى ما يقرب السنة، جاء الصيف ثم ذهب، وجاء الشتاء ثانية فكان أشد قساوة في برده من السنة السابقة، أذكر أنه كان العام ١٩٥٠، تساقط الثلج بمقادير كبيرة، فاصطبغت الأرض بالبياض، وكانت النتيجة أن خيمتنا قد ثقلت بما تحمله من ثلج فانهارت على رؤوسنا في عتمة الليل، كانت ليلة ليلاء، وإني لأذكر أن أبي وبعض الجيران ساعدونا على أن ننصب الخيمة ثانية بعد جهد كبير.

الجزء الثاني

صلي ع النبي يا جورج – أمريكا

(٨)

فرد الرجل هامته في مقهى بمدينة جيرسي بولاية نيوجرسي، وأمامه شيشة يبث دخانها مع آخرين ممن يدخنونها، فتنبعث في الجو هالة من الضباب كأنما نحن في أوائل الشتاء، كان الرجل وحيدًا كئيبًا، تبين على ملامحه أنه بلغ أرذل العمر، ترتجف يداه عندما يقبض على خرطوم الشيشة فلا تكاد تبلغ فاه إلا بشق النفس.

كنا مجموعة من الكتاب والأدباء ننتظر الكاتب الأستاذ محمد الخولي في محاضرة له عندما جاء من مصر إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد كان الرجل مستشارا في الأمم المتحدة ثم تقاعد وسافر إلى مصر، وظلت أمريكا حلما في ذهنه، يأتيها كلما عن له ذلك، وقد كان الرجل معطاءً عندما تحدث في السياسة وفي مجريات الأحداث في العالم العربي، وذلك عندما دعينا مرة إلى بيت الشاعر الأستاذ فرانسوا باسيلي على مائدة عشاء دعي إليها الكثير من الكتاب والأدباء والموسيقيين والمغنين، في حفل عائلي رعاه الأستاذ فرانسوا مع عائلته الكريمة، وكان محمد الخولي ضيفًا عزيزًا في ذلك الحفل، ثم اتفقنا أثناء الحفل على أن نستضيف الأستاذ الخولي في مقهى في مدينة جيرسي ستي يعشق صاحبها الشعر والأدب والفن والجمال، كان محمد صاحب المقهى يخدم الضيوف بنفسه، وقد أكبرنا له ذلك، وكان البعض منا يساعده على خدمة الضيوف، وهكذا بدأت المحاضرة.

لم أفهم الكثير مما تحدث به الأستاذ الخولي، إذ لفت نظري ذلك الرجل العجوز الذي بالكاد كان يمتص خرطوم النرجيلة، وينفث الدخان بقوة كأنما هي سحابة ضبابية...

كنت أنظر إلى المحاضر حينًا وإلى الرجل حينًا آخر، يا إلهي، إن ملامح هذا العجوز ليست غريبة عني، رأيته يغطي رأسه بحطة لفها على شكل ما يقوم به الفلسطينيون عندما يرتدونها، إنها تغطي كل الرأس والشعر والأذنين ولا يظهر منها ملامح الرجل الذي بدا في يقيني أني أعرفه وشككت في ذلك.

أين رأيت هذا الرجل، عادت بي السنوات بعيدًا، لم أتذكر شيئا، وإنما بدا في يقيني أني قابلته في مكان ما وفي زمن آخر، خمنت أني رأيته في حلمي، ثم استبعدت ذلك، وخمنت أنه من النوع الذي يألفه الإنسان فيظن أنه صديقه أو حتى رآه في يوم ما، جاء في ذهني أن أجلس إلى الرجل عندما تنتهي المحاضرة فأكلمه، ولكن ذلك ليس من باب اللياقة، إذ ربما زجرني إن تحدثت إليه بما لا يعجبه، وفي النهاية عزمت على ذلك.

وفي لحظة غامرة بالتخيلات وإعمال الفكر والعقل، لفت نظري ما كنت قد توقعته، إنها الصدفة البحتة التي تقلب رأس الإنسان فتجعل الذاكرة كصور للأسود والأبيض للتمعن في تلك الصور جميعًا، نظرت إلى يده اليمنى التي تقبض على خرطوم الشيشة، فإذا بوحمة على شكل ورقة العنب تبرز من ظاهر كفه، لم أتخيل أنني أعرف الرجل، ولكني رأيت هذه الوحمة في زمن ما وفي يوم ما، عدت إلى التفكير، وغاب عني المحاضر كليًا وبدأت التركيز، حتى أن بعض أصدقائي من الجمع كان يكلمني وأنا غائب الذهن لا أرد عليهم أو يأتيني الرد بلهجة أو كلمات لا أعرف محتواها، وفي خضم ذلك، أعلن عريف الحفل أن المحاضرة قد انتهت وأن الأستاذ الخولي ينتظر منا الأسئلة ليجيب عليها.

لم أقم بتقديم أي سؤال للمحاضر، واستغرب بعض الأصدقاء لأني كنت قد حضرت قائمة من الأسئلة قبل بدء المحاضرة، ولكني نسيتها كليًا، بل قبعت في جيبي لا ألتفت إليها أو أتذكرها،فقبل المحاضرة كنت اعرف موضوعها فاستبقتها وسجلت ملاحظاتي واسئلتي .. وبعد قليل أعلن المحاضر أنه سيغادر إلى نيويورك، وسيلتقي بنا في يوم آخر، وهكذا تفرق الأصدقاء والحضور وبقي من في المقهى من الزبائن يدخن الشيشة ويتحاورون ويتناقشون بصوت عال وكأنما هي فوضى لم يكن من ينظمها.

بقيت وحيدًا ولم أغادر وبقي رأسي يستجلب الصور صورة بعد أخرى، وأخيرًا نهضت من مكاني واتجهت إلى الرجل وقلت له:

- يا عم، هل يمكن أن أجالسك لدقائق؟

قال:

- إني لا أسمعك، ما الذي قلته... أعلِ صوتك قليلاً.

قلت بصوت أعلى:

- أريد أن أجلس معك بعض الوقت.

- أهلاً بك وسهلاً، هل تدخن الشيشة؟

- كلا...

- هل تشرب شيئا؟

- شربت شايًا قبل دقائق ولا حاجة لي به...

- إذن ما الذي دعاك أن تجالسني؟

- أراك ترتدي على رأسك حطة ولكن ينقصك العقال...

- يا بني، أنا فلسطيني، وهذا هو لباسنا القومي.

- وتتحدث بالقومية أيضًا؟

- نشأت هكذا وسأموت هكذا.

- يهيأ لي أني أعرفك، وأنني التقيت بك، ولكن لا أتذكر أين ومتى...

- يا بني، الوجوه تتشابه في بعض الأحيان، ثم سألني: هل أنت فلسطيني؟

- نعم...

- الفلسطينيون يتشابهون في لباسهم، ولكني أراك تلبس الحديث.

- أنا من الزمنين، الذي مضى والذي هو آت...

- أهذه نكتة؟

- كلا، إنها الحقيقة، فأنت في أمريكا تبدو غريبًا لأن الناس لا يتشابهون في اللباس، وهكذا ترى أن كل واحد حر في أن يرتدي ما يشاء.

- أنت على حق.

كنا نتحدث بصوت عال لكي يسمعني، وكنت أجده بين لحظة وأخرى يمد أصابعه على أذنه فيعدل من وضع سماعته في أذنه اليمنى، قلت:

- هل عندك ضعف في السمع؟

- اليمنى لا أسمع بها الا قليلا، وقد ذهبت إلى الطبيب فنصحني بتركيب سماعة اضعها في أذني، ولكنها لا تفي بالغرض دائمًا.

- يجب أن تركز عندما يتحدث البعض إليك.

- أنا أسمع ولكن ليس جيدًا.

- أنا الآخر أعاني من ضعف في السمع في أذني اليمنى.

- أنصحك بالسماعة...

- لم يحن الوقت بعد، إني أسمع بها ولكن ليس كما يجب...

جاءني فنجان من القهوة لم أطلبه، أجاد به محمد صاحب القهوة، قلت للعجوز:

- هل أستطيع أن أدخن هنا؟

- لك ذلك، فأنت ترى الأجواء هنا كأنها مدخنة في مصنع.

- في بعض المحلات لا يسمحون بتدخين السجائر، ولكنهم يسمحون بتدخين الشيشة...

- يا بني، في هذا الجو يضيع المدخن وغير المدخن، توكل على الله وأشعلها.

أشعلت سيجارتي، وصمتنا، ولكن الذكريات بدأت تعود لي، وبدأت أحدث نفسي، لو أنه يزيل هذه الحطة عن رأسه فلربما تذكرت شيئا، وكأنما سمع ما بداخلي فرأيت بعض العرق يتصبب من تحت الحطة، فخلعها ووضعها أمامه، إنه أصلع تمامًا، ولكن شعيرات بيضاء في مقدمة الرأس لم تزل مثبتة فيه، عندها فقط، انتاب جسمي شيء من الرعشة، وقلت:

- كيف حالك يا جورج؟

انتفض الرجل كأنما صببت عليه سطلا من الماء...

(٩)

بدأ جسده ينتفض، قال لي:

- أنا يونان ولست جورج...

قلت مبتسمًا:

- أنت يونان وجورج معًا.

- من أنت يا رجل؟

- لن أقول لك حتى تعترف أنك جورج أو يونان.

- أنا يونان، يبدو أن شيئًا ما أشكل عليك ولا تعرفني بل شبهتني...

- يا رجل، ألا تذكر السجائر التي كنت أشتريها لك عندما كنت تعطيني قرشين للسجائر وخمس مليمات لي أشتري بها بعض ما هو حلو وتشجعني على ذلك، ألا تذكر شيئا؟

- يبدو أنك أخطأت، هذه بطاقتي فانظر إليها...

ألقى ببطاقته أمامي فقرات فيها يونان، قال:

- هل تأكدت الآن بأنك أخطأت الاسم؟

- اسمك الحقيقي يونان، لكن اسمك الذي أعرفه جورج...

تفرس في وجهي وكأنه يستعيد تاريخه كله، وقال:

- ألا تقل لي من أنت؟

- أتذكر قرية العباسية المحاذية لمدينة اللد؟

انتفض واقفًا وقال:

- أنا لا أذكر شيئا، دعني وشأني، وأرجو أن تغادرني في الحال.

قلت له:

- لا تخف يا جورج، فكما سترت عليك يوم اختبأت في بيتنا بالعباسية، سأستر عليك هذه اللحظة، ثم إن ما جرى قد مضى عليه الزمن حتى غدا أكثر من خمسة وأربعين عاما.

جلس إلى مقعده فكأنما صببت على جسده قربة من الماء وقال بهدوء:

- لم تقل لي من أنت؟

- هل تذكر وليد، الطفل الذي كنت تحكي له عن الإنجليز واليهود وفلسطين، ولقد كلفت أمي بالذهاب إلى قرية الزبابدة لكي تبحث عن أهلك هناك لتطمئن أمك على وجودك في بيتنا حيًا؟

كأنما صحا من غفوته وسرح بنظره وتذكر كل شيء، قال:

- يا رب، أيها الشقي، هل أنت حي يرزق؟

- كما كنا نقول لك فيما مضى، أأنت حي ترزق؟

قام الرجل من فوره واحتضنني وأخذ يقبلني ويبكي، كانت عيناه تدران الدموع كأنما هي عنز تعطي حليبها لوليدها، لم يستطع الكلام، كان في كل دقيقة يقف على قدميه بصعوبة ويقبلني، بل حاول تقبيل يدي فسحبتها منه وقلت له:

- يا عم جورج، عفوًا يونان، أنت مثل والدي فلا تخجلني.

- يا الله، أنت الطفل العفريت الذي كان يتلصص علي كلما أغلقت بابي!

- أنا هو...

سألني:

- كيف هي أمك وأبيك؟

- يرحمهما الله...

- وفوزي، هل ما زال حيًا؟

- نعم، إنه في الأردن مع عائلته، ثم أضفت، أنت ما تزال تتذكر الأسماء...

- وهل ينسى الإنسان ما قُدم إليه من خدمة في زمن المحنة؟

- ما تزال المحنة قائمة وبصورة أوسع...

- اعلم ذلك، ثم استدرك، كان هناك طفلان أيضًا لم أعد أذكر اسميهما...

- أنت تعني غازي وفوزية...

- نعم، الآن تذكرت...

- ذهبت فوزية إلى رحمة الله، أما أخي غازي أعطاه الله العمر المديد، ما زال حيًا، وهو هنا في أمريكا مع عائلته وأولاده...

- يا الله، أنت تذكرني بالأيام الجميلة رغم الهلع والخوف والرعب والموت، كيف أتيت إلى هنا ؟

- حدثني أنت أولاً...

سرح بنظره عبر الفضاء، استجمع كل قواه فأصبح كمن عاد صبيًا:

- ياه، ياه، هذه الدنيا صغيرة...

قلت:

- أتذكر عندما كنت تلعب الكوتشينة مع أبي فيقول لك صل ع النبي يا جورج، أنت تسرق الورق، فتحلف أغلظ الإيمان أنك لا تسرق، ولا يصدق أبي فيعيدها عليك فتصلي على النبي وتصرخ: والله لم أسرق طيلة حياتي...

قال بعد أن جفف بعض دموعه:

- حتى هذه تتذكرها؟!

- الطفل لا ينسى، إن الأحداث تُنقش في ذاكرته مثل اللوحات في المتاحف.

- قبل أن أحدثك كيف أتيت إلى هنا، أريدك أن تحلف لي يمينًا مغلظًا أنك لن تبوح بسري لأحد، وأنت تعرف أنني محكوم بالإعدام من قبل محكمة بريطانية، وجرائم القتل في بريطانيا لا تسقط بالتقادم، حتى لو مضى عليها مائة عام، فلو علم أحد بوجودي ربما تسرب الأمر إلى ما لا تحمد عقباه، فأقدم رأسي إلى المقصلة في أواخر عمري...

قلت ضاحكًا:

- يا جورج، قد ألغيت المقصلة في بريطانيا منذ أكثر من ثلاثين سنة، واستبدل الأمر بالمؤبد.

قال مبتسمًا:

- لقد كبرت وأصبحت تعرف القوانين الدولية أيضًا...

- إن ذلك ينشر في الصحف والمجلات، فأقرأه، ولست خبيرًا بالقوانين.

- ماذا تعمل الآن؟

- أصدر جريدة باللغة العربية في ولاية نيوجرسي...

قال ضاحكًا:

- أنت أخطر علي من الإنجليز.

- كنت قد قررت بيني وبين نفسي عندما قابلتك أن أنشر قصتك...

- انشرها، ولكن ليس الآن...

- متى أستطيع نشرها؟

- بعد أربعة عشر عامًا.

- ولم؟

- لأني أخمن ان لا أعيش حتى ذلك التاريخ، بعدها أنت حر التصرف فيما تبغي...

- الإنسان لا يعرف آخرته، لكنه يعرف دنياه جيدًا.

- أشك في ذلك، فالحياة لا نسير فيها ولكنها تسير فينا...

تابعت بعد أن زاغ بصري وجاء الغباش على عيني حتى خلت أن الدنيا قد أصبحت ظلاما رغم الأضواء المبهرة في المقهى.

قلت له فجأة:

- كم عمرك يا جورج؟

- قلت لك لست جورج، كان هذا الاسم فيما مضى تمويها، ثم تابع، نادني باسمي يونان...

نظر إلى سقف المقهى وقال:

- يا بني، في فلسطين الإنسان لا يعرف عمره، إنها أرض مباركة، إنها أرض المسيح تشعر وأنت تعيش فيها أن الزمن قد تضاءل حتى غدا مثل أسطورة جميلة تستعيدها كلما عن لك ذلك، لم أعد أهتم بعمري، لقد ولدت في عشرينات القرن الماضي، عندما لجأت إلى بيتكم كان عمري سبعة وعشرين عامًا، احسبها أنت.

- إذن حضرت كل ما جرى لفلسطين، من أول الأحداث حتى أخرها إن كان لها أخر...

- إنها أيام جميلة رغم الرعب الذي كان يلفني.

- كيف تعيش يا يونان وأنت في هذه السن، هل هناك من يساعدك؟

- الدنيا لم تزل بخير، الكنيسة تساعدني أحيانًا، والدولة هنا ترعاني طبيًا وحياتيًا.

- هل تحمل الجنسية الأمريكية؟

- نعم، أخذتها منذ زمن، ولكني كلما نظرت إلى جواز سفري بدا لي أنه مكتوب على صفحته الأولى فلسطين.

- أما زلت تحبها؟

- أحب من؟

- فلسطين، لقد ذكرتها الآن...

- يا ولدي، هل ينسى الإنسان بلدا هي جزء منه أو هو جزء منها، هل أنسى الزبابدة وصحيان أمي في الصباح لكي تقدم لي الإفطار وبعض القهوة...

- للمناسبة، ماذا جرى لعائلتك في الوطن؟

- رحم الله والدي، بعد ذهابكم لم أرهم سوى مرة واحدة.

- أصبحت الزبابدة تابعة للأردن بعد عام ١٩٥٠، فهل ذهبت إليهم في القرية؟

- مرة واحدة فقط قبل وفاتهما، ولقد فاضت عينا أمي بالدمع عندما رأتني، لكن أبي رحمه الله ربت على كتفي وقال لي كلمة لا زلت أذكرها، أنت بطل يا يونان، تغربك في البلاد وهروبك من قوات الظلم يعني أنك قدمت شيئًا للوطن، اذهب راشدًا.

- أريدك أن تحدثني بالتفاصيل.

- يا بني، العمر يفقدك الكثير من ذكرياتك، لكني ما زلت أحفظها أو بعضها عن ظهر قلب رغم نسيان الشيء الكثير.

- قصتك سوف أنشرها فيقرأها الناس ليعرفوا أنك كنت أحد الذين ناضلوا من أجل فلسطين الشهيدة...

انتفض وقال:

- ليست شهيدة، إنها ما تزال حية ترزق، كما نحن، لكن كل جيوش الدنيا اجتمعت لكي تأكل أطرافها، وستعود، نعم، ستعود، طالما أن هناك من يطالب بحقه، فلن يضيع حق وراءه مطالب.

- متى نلتقي ثانية؟

- اذهب عني الآن فقد أتعبتني، وغدًا يوم آخر.

(١٠)

جمعنا اللقاء الثاني في نفس المقهى، كنت في شوق لأعرف باقي قصته، ما الذي جرى له عندما غادرنا البلد متجهين إلى المجهول، وكيف أتى إلى أمريكا، كيف تجاوز كل الحواجز بعد أن احتلت البلاد وتفرق العباد، كانت الظنون قبل أن يصلني تنتابني وأتمنى أن أراه ثانية لأكمل ما كتبته منذ سنوات وأحتفظ به لأن مسار القصة قد تغير...

فقد بدأت كتابة الجزء الأول من هذه الذكريات عام ١٩٧٢ في بيروت، وأهملت كتابتها لأن عدم ظهور جورج فيها لا يعطيك الألق الذي يعطيه ظهوره، ولم أكن أتوقع أن ألقى الرجل، ولقد فكرت أن أنهي كتابة تلك الذكريات لسنوات مضت، ولكنها ضاعت بين أوراقي المكدسة فلم أعد إليها، وعندما عثرت على جورج أو يونان بالصدفة، تغير كل شيء فإذا بي أبحث في أوراقي القديمة فاعثر عليها، وهكذا تغير المسار فأعدت كتابتها ثانية.

أثناء انتظاري لجورج جاءني التفكير العميق، فلقد رأيته في المقابلة الأولى يشك بي منذ البداية، ولو أنه كان بشوشًا بعد أن عرفني، خشيت ألا يعود، ولمت نفسي على غبائي، لم أكتب حتى رقم هاتفه أو عنوانه أو ما يشير إلى مقر إقامته، وزاد توتري عندما تأخر عن موعد حضوره للمقهى لنصف ساعة أو أكثر، كنت انظر إلى ساعتي التي أضعها عادة في يدي اليمنى وليس اليسرى وتلك قصة أخرى، فأرى أن الوقت في كل دقيقة يمر وكأنها ساعة من الزمن، انتابني السأم فسألت صاحب المقهى عنه فقال لي إنه لم يره منذ لقائنا الأول، مع أنه كان يأتي أسبوعيًا لمرات ثلاث، بمثل هذا الوقت .. قطعت الأمل في أن أراه ثانية، ولكني عزمت على أن أظل في المقهى بانتظاره حتى لو تأخر ساعات وساعات...

كنت أمني نفسي بلقائه بعد أن تزاحم عقلي بأفكار ووساوس لا تخطر على بال: يمكن أن يكون مريضا، أو لكبر سنه وجد مشقة في الوصول، أو لا يثق بي، أو غير ذلك، شعرت فجأة بالجوع فطلبت شطيرة من المقهى الذي كان يقدم بعض الشطائر بالجبن والعسل، ولكنهم عندما أحضروا الشطيرة لم أذقها، كان كل همي أن أعرف قصته، وكأنما امتلأت معدتي بالطعام فلم أشعر بعد ذلك بالجوع الذي كان قبل أن تأتي الشطيرة لا يفارقني.

بعد ساعة إلا قليلاً جاء يتوكأ على عصاه كأنما حمل على ظهره كل هموم الدنيا، هرعت إليه عند باب المقهى الذي كان في الدور الثاني لأساعده في الوصول، فسلم علي وهز يدي وكأنما يراني للمرة الأولى، قلت:

- لقد تأخرت عن موعدك، لقد شغلتني...

قال مازحًا:

- يا رجل، أنت لا تهتم بي ولكنك تهتم بكتابة ما تريد أن تكتبه.

- يا عم يونان، هذا صحيح، ولكني لا أهتم بالكتابة بقدر ما أهتم بوجودك معي.

قال مازحًا أيضًا:

- لا تنافق، قل الحقيقة...

- ربما كان ما تتحدث به صحيح إلى درجة معينة، ولكن المعنى الحقيقي للقاء أن أجدك بالصدفة أولاً، وأن تحدثني ثانيًا، وأن أستعيد ذكريات عمر مضى وكأنه حدث البارحة.

- لا تراع، إنني أمزح.

- أنت تذكرني بما كنت تقوله لأبي عندما تتشاجران.

- رحم الله أباك، كنت أحبه وأحترمه رغم مناكفتي له، ثم أضاف: أتعرف، كنت أحلف له أغلظ الإيمان أنني لا أسرق الورق، ولكني في الحقيقة كنت ماهرا في إخفاء ما أسرق...

ضحكت فقال:

- أتعرف أين كنت أخفي الورق المسروق؟

- كلا.

- في كم قمصي، وكانت عندي السرعة القصوى في أن أخدع نظره، وهكذا لم يكن يراني.

- أنت لم تخدعه وحده فقط، ولكنك كنت تخدعني فلا أراك!

- أما أنت فقد كنت صغيرًا.

- رحم الله أبي، فقد كان طيب القلب جدًا يصدق كل ما يسمع.

- آه لو كان حيا؛ لما ترددت في أن أسير إليه حتى لو سرت على قدمي لأيام كي أراه، ولكن الرب يشاء أن يذهب قبلي، ثم تابع والحزن باد على وجهه، أما أمك فلن أنسى لها ما قامت به من عنت ووصب في سبيل الاستدلال على أبي وأمي لإخبارهما أنني ما زلت حيًا، لقد زرتهما كما أسلفت لك لمرة واحدة وقابلت مختار القرية الذي أخبرني أنها وصلت القرية على حمار استأجرته من مدينة نابلس، وكانت أمك قد قالت لنا كيف كانت الرحلة، ولكني عندما سمعتها من المختار بدا قلبي مجروحًا، كيف أقبل على نفسي أن أجعل امرأة وأنت تعرف ما كانت عليه المرأة في ذلك الزمان، أن تذهب وقت الخطر للعثور على أهلي!

- ما كان كان، إنها ذكريات مؤلمة.

- مؤلمة هذا صحيح، ولكننا كنا في الوطن، فعذاب الوطن خير من نعيم الغربة.

قلت فجأة:

- هل أنت جائع، دعنا نأكل سويًا.

- حمدًا لله، لم آكل منذ الصباح، ولكني أشعر بالشبع فلا أريد الطعام، كان كل همي أن أصل إليك، فقد تأخرت عند جيران لي كان عندهم عزاء، ولم أستطع المغادرة حتى لا يقول الناس إني لا اهتم بما يجري، وحتى عثرت على الحافلة التي تقلني إليك فقد استغرق ذلك وقتا، لأن اليوم عطلة، والمواصلات قليلة، وكنت أظن أنني لن أجدك لاننا لم نحدد ساعة للقاء، غير أنني قلت لنفسي، حتمًا هو هناك، وإذا بك كما توقعتك.

- يا عم جورج عفوًا يونان...

قال فجأة:

- أنت تصر على أن تدعوني جورج، إن هذا الاسم لا يعنيني بشيء الآن، أتعرف أنني نسيته كليًا، فليس صعبا على الإنسان الاختفاء باسم مزيف، ولكن شيخ المسجد آنذاك ورحمه الله إن كان ميتًا هو الذي شجعني على إبقاء الاسم، أما إن كان حيًا فإني أدعو له بطول العمر.

- يا عم يونان، كان كبير السن هناك، فهل يعيش بعد مرور خمسة وأربعين عاما؟
- الأعمار بيد الله، من كان يظن أنني أعيش حتى أبلغ من العمر عتيًا.

جاءنا الطعام بعد أن طلبته، وما أن تناولنا بعضه حتى نظر يونان إلى باب المقهى فإذا بعجوز يمكن أن يكون أكبر منه قليلاً قد دلف إلى المقهى، فانقطع يونان عن الطعام وقام يتوكأ على عصاه لاستقباله، لم اسأله من الشيخ، لكنه جاء إليَّ بعد أن تحدث إلى العجوز بكلمات لم أسمعها، جاء العجوز إليَّ وسلم علي وقال:

- شرفتنا يا أستاذ، إنني اقرأ مقالاتك التي تكتبها، وأنا فخور بك.
- اجلس معنا وتناول الطعام.

قال العجوز:

- لا تهتم... أكمل طعامك، إن صديقي يونان قد حدثني عنك أول من أمس، كان فرحًا وفخورًا وكأنما استعاد شبابه... قلت له كن حذرًا يا يونان، يمكن أن يفشي سرك في جريدته...

قلت:

- لا أسرار بيني وبينه، إنما هي المحبة والوفاء والصحبة الجميلة رغم فوارق السن بيننا.

قال يونان مازحًا:

- لا فرق بين عمري وعمرك سوى سنوات، قد بدا الشيب يمخر عباب رأسك، فإن لم تكن اليوم مثلنا فإنك غدًا ستكون.

قلت:

- اجلس معنا أيها الرجل وشاركنا طعامنا.

قال:

- سأتناول لقمة واحدة فقط، عنوانًا للصداقة التي تجمعنا، فصديق يونان صديقي.

تناول لقمة واحدة وهو واقف، وأخذ ينظر إلى وجهي بانتباه، ثم قال:

- سأقول لك سرًا عن يونان لا يعرفه أحد غيري.

نظر يونان إلى وجه زميله وقال:

- بلاش فضائح، اسكت يا عبد الرحمن.

لم يسكت عبد الرحمن، لكنه قال:

- عندما يشيب المرء يظن نفسه ما زال صبيًا.

ثم سكت...

(١١)

بدا جورج مذهولاً، قال عبد الرحمن:

- أتدري، يونان وقع في الحب عندما كان في الخامسة والستين...

قلت:

- وما العيب في ذلك؟

ووجهت حديثي إلى يونان:

- هل تزوجت يا يونان؟

قال:

- لم تتح لي الفرصة .

قال عبد الرحمن:

- بل كان على نية الزواج عندما تعرف إلى فتاة كانت في نصف عمره، كانت معجبة به إلى درجة الجنون، ولكن الله أخذها مبكرًا.

قال يونان:

- ارجوك، دع عنك هذه السيرة إنها تجرحني.

قلت ليونان:

- قل لي ما الذي حدث؟

- لا شيء يمكن أن أقوله، فعبد الرحمن يعرف ذلك، اسأله ولا تسألني.

- أطربنا يا عبد الرحمن بكلامك.

- كانت الفتاة عربية، فيونان عزف عن الأمريكيات، وكان يرى فيهن صورة لكل ما هو إنجليزي، وأنت تعرف كرهه لبريطانيا بكل ما فيها، ومن طرائف الأمر أنها كانت في اصولها من بلدة الزبابدة، تعرف إليها في الكنيسة يوم أحد، وبدا لنا نحن أصدقاءه أنه على وشك الزواج، وفجأة شعرت الفتاة بضعف شديد في جسدها، نقلها يونان إلى الطبيب، وفي غضون أيام ذوت الفتاة حتى أصبحت كالتمثال الشمعي، كان الأطباء يعرفون ماهية المرض، وأخيرًا ماتت وكتب في شهادة وفاتها أنها توفيت نتيجة تضخم الكبد، وعلمي أنها الفتاة الأولى في حياة يونان...

- إنها قصة مأساوية، ولكن، دعنا من هذه الأمور نريد أن نعود إلى محور حياة يونان، ما الذي جرى عندما غادرنا فلسطين إلى المجهول؟

قال يونان:

- هذه ذكرى مؤلمة، وقد عولت على نفسي ألا أتحدث بما جرى، ولكنك وليد ابن الرابعة أو الخامسة لا أدري عندما كنت في دياركم، فقد انغرس حبي ووجداني في عائلتك الكريمة.

قلت:

- لقد مضى الكثير من الزمن لكي تنسى.

قال مبتسمًا:

- أنت تقلل من شأن ذاكرتي، يا رجل، هي أيام حفرت في ذاكرتي كتضاريس الوطن، لا أنساها حتى يقودونني إلى المقبرة...

قلت:

- العمر الطويل لك يا يونان.

- ليس في العمر بقية، ثم أضاف، هل تدري، عندما تعرفت عليك في هذا المقهى حمدت الله على أن رأيتك، وحمدت الله أكثر عندما أعلمتني أنك تمتلك جريدة يمكن أن أبوح بها على ما بوجداني.

سرح بنظره إلى البعيد، ورأيت دمعة تسقط من عينيه فمسحها بطرف كمه، قال:

- عندما غادرتمونا ولا أدري وجهتكم كان الوقت ظهرًا، سمعت الآذان في المسجد فاستبشرت خيرًا أن بعض الناس ما زالوا في القرية ، ذهبت إلى المسجد، كانت الشوارع خالية، لا أثر للناس في البلد، ولكني واصلت السير إلى (زقاق الرمل) حيث يقبع المسجد، دلفته فإذا لا أثر للناس فيه، كان شيخ المسجد ذلك الذي يعرف قصتي جيدًا ، قد قام من مجلسه في المسجد واحتضنني وقال:

- خلتك قد تركت القرية، الحمد لله أن وجدتك، فلا أحد في القرية سواي وأنت...

قلت:

- إذن لماذا تقيم الصلاة في هذا الوقت؟

- لأن ديني أمرني بذلك، إن جاء أحدهم فأهلاً وسهلاً، وإن لم يأتِ أقيم صلاتي وحدي.

- هل في البلد يهودا؟

- حتى الآن لا، إني أطوف الطرقات بحثًا عن الناس ولا أجد أحدًا، أصبحت القرية كأنما هي موطن أشباح...

- يا سيدي الشيخ، ألا تخاف على حياتك؟

قال بحزن:

- يا بني، لقد بلغت من العمر أكثر مما أتمنى، مغادرتي يعني أن أترك المسجد لهم، هل تريد لهذا الصرح أن يهدم؟

- حياتك أثمن من كل شيء، ثم إنك لا تستطيع منعهم إن أرادوا هدمه...

- حياتي لا تساوي شيئا، لقد رحل أبنائي وزوجاتهم وأولادهم ورفضت أن أغادر معهم، أموت هنا ولا أرحل، ثم أردف، ما الذي حدث لبيت أبي النمر (يعني بيتنا)، هل غادروا؟

- نعم ولكني رفضت الرحيل.

- هل تعرف إلى أية وجهة؟

- في حالات الخوف لا يعرف الناس أين يذهبون، إنهم يتخبطون دون علم أو معرفة بما يحدث، خاصة وأن جنود اليهود كانوا يقتلون الناس في الطرقات دون ذنب جنوه، لغرض إفراغ البلد من سكانه...

قال الشيخ:

- أنت يا جورج مطلوب للإنجليز، ولا يستبعد أن يرث اليهود كل ملفاتهم، ارحل يا بني، فإن حياتك أيضًا ثمينة.

- إلى أين يا شيخ، كل الطرقات سدت، لا يستطيع الإنسان أن يجد منفذا يهرب منه...

- كنت ماهرا في التسلل ما بينهم والوصول إلى بغيتك.

- كنت ترى هؤلاء وأولئك، ومن ثم تضيع بين الجهتين، أما اليوم فهم فيها...

صمت جورج طويلاً وكأنه يجمع أفكاره ليتحدث بما جرى، دام صمته أكثر من دقيقتين، يا الله، جورج أو يونان يبكي، قلت:

- يا يونان، الذكرى حقًا مؤلمة ولكنها طويت فيما طواه الزمن، إنها سنوات وسنوات طويلة.

قال يونان من خلال اختناقه بالدمع:

- أتعرف، أشعر أن ذلك حدث البارحة، ما زلت أذكر الفزع والخوف الذي كان على وجوه الناس السائرة في الدروب دون وجهة، حتى أن إحداهن اكتشفت بعد بعض الوقت أنها حملت المخدة بدلا من رضيعها، ثم عادت إليه لكي تقتل في الطريق، هكذا أخبرني من عاد للقرية ثم ما لبث أن هرب إلى جهة مجهولة.

قلت:

- وماذا بعد.

قال يونان:

- بقيت في المسجد مع الشيخ حتى المساء، جعت فقلت للشيخ، هل عندك ما نتبلغ منه، طعاما أو شرابا أو أي شيء يسد هذا الجوع؟

قال:

- القرية كلها أمامك، تستطيع فتح أي بيت لتجد بعض الفتات أو الطعام فيه، بعض الأبواب مفتوح على مصاريعها ولم يتسن لأهله أن يغلقوها، البعض الآخر مقفل أخذوا مفاتيحه على أمل العودة إليه.

- إذن سأذهب قليلاً وسأعود بما أعثر عليه.

تابع جورج:

- ذهبت إلى بيت قريب من المسجد، فإذا به مغلق، ثم إلى الثاني وكان مغلقًا، أما الثالث فقد ترك أهله الباب مفتوحًا، دخلت إلى البيت بعد أن طرقت الباب المفتوح طويلاً علَّني أعثر على أحد فلم يرد علي أحد، ولجت إليه، وفي زاوية من البيت رأيت حزمة من الخبز الطابوني مغطًّى بشاش خفيف، تحسَّسته فوجدت أنه لا يزال بعيدًا عن التعفن إلا قليلاً، فقد داهم الخوف أهله فتركوا الخبز على حاله مغطًّى بشاش خفيف وفروا، جئت بالخبز الذي لم أجد غيره في البيت وعدت إلى المسجد، كانت بالعدد سبعة عشر رغيفًا، قلت في نفسي، هذه ثروة تغنينا عن الجوع أيامًا طويلة، وصلت إلى المسجد وكانت الدنيا على أبواب المساء، قال لي الشيخ:

- هل وجدت شيئًا؟

- الكثير من الخبز...

قال الشيخ:

- عندي شاي وسكر، قد نبل لقمتنا بشيء منه.

تبلغنا ذلك المساء ببعض الخبز والشاي، وعند الساعة الثامنة مساءً سمعنا إطلاق نار في أطراف القرية، قلت للشيخ:

- إذا وجدوني هنا كانت الكارثة، سوف أغادر...

قال لي الشيخ:

- كنت سأنصحك بذلك، فأنت في وضع حرج، اذهب يا بني راشدا علَّ الله ينير لك دربك فتستطيع الوصول إلى أهلك في الزبابدة.

- وأين أنا من الزبابدة.

- سوف ييسر الله عسرك إلى أمر لا تظنه ميسورا، تابع الشيخ، خذ معك بعض أرغفة قد تحتاجها في طريقك.

- سوف أتركها لك وأتدبر أمري...

غادرت المسجد وقد سمعت صوت الرصاص يقترب من جنبات القرية، سرت في طريقي نحو شجر البرتقال في مزرعة قريبة، كانت الدنيا ظلامًا فلم أستطع أن أرى طريقي إلا بصعوبة، تهت عبر الأشجار فإذا أنا قُرب مستعمرة بتاح تكفا، قلت في نفسي، يا ويلي، هربت من القرية إليهم، فأخذت الطريق المعاكس ثانية، وعند الطريق المسفلت الذي يصل بلدتنا بمدينة اللد تابعت سيري مختفيًا بين الأشجار القريبة من الطريق.

(١٢)

لاحت تباشير الصباح، كان الضوء ممزوجًا بالعتمة، كنت أرى أغصان الأشجار وكأنها تتشكل على صور أعرف بعضها ولا أعرف بعضها الآخر، بدأت أسلي نفسي، هذا الغصن يبدو من خلال الأفق في السماء أنه رسم لحصان، وتلك أم تحمل طفلها، وثالث غصن كأنه عفريت من الجن، كان نصيبي بيارة من البرتقال فيها الثمر ناضجا، لا أحد هنا، فلأقطف بعض الثمر وأتبلغ به، إن المسافة التي سأقطعها طويلة جدًا، قد تستغرق عدة أيام، وأنا بحاجة إلى الطعام، قطفت برتقالة ناضجة وامتصصت رحيقها، كانت لذيذة الطعم إلى درجة أنني أقدمت على قطف الثانية، ثم الثالثة، ولا أدري كم برتقالة أكلتها، إلا أنني عندما نظرت إلى قشور البرتقال المتكوم تحت الشجرة عزفت عن المزيد، إذ كانت كومة كبيرة، قلت لنفسي، هذا فطور الصباح، علَّ الله يفتح لي طريقا يمكن أن أتسرب منه إلى قرية الزبابدة أو إلى الأردن.

كانت الأضواء التي تنبعث من بيوت المستعمرة القريبة من العباسية توحي بأنني أعيش في الفضاء، الأضواء تظهر ثم تختفي، كانت بعيدة عني بثلاث كيلو مترات على الأقل، تمتمت لنفسي، الآن عرفت طريقي، إنها البيارة التي قتل فيها الجندي البريطاني، والتي لوحقت على إثرها وتشردت في بقاع فلسطين، جاءني هاجس أن أذهب إلى منزل صاحب البيارة الذي عملت عنده، مشيت مسافة لا تقل عن عشر دقائق، ومن البعيد رأيت البيت الذي يقبع بين الأشجار، هنا رأيت المرأة التي تمددت على الأرض يدوسها ذلك الجندي القذر، وهذه هي الغرفة الوحيدة التي تقبع في البستان لأخذ بعض الراحة عندما يتعب الرجال الذين يعملون، وهذه صناديق البرتقال الفارغة التي كانت تنتظر من يملأها بحبات البرتقال الذهبية تمهيدًا لتصديرها إلى المتعهد في يافا لنقلها إلى أوروبا.

توقفت قليلاً لأرى إن كان حول البيت حركة ما، لكن الصمت خرق أذني، توجهت إلى المنزل، كانت هناك مرتبة أو فرشة قصيرة قد ضمخت بالدماء، كانت الدماء جافة على مخدة تركها أصحابها عندما أتى الجنود، لا أعرف ما الذي جرى لهم، ثم ذهبت إلى البئر عند أطراف البيت فوجدت الدلاء ما تزال مكانها،وكان الباب الرئيس للبئرمغطى بصفيح يلائم فتحته .. عولت على ان انزل الدلاء إلى البئر فاتبلغ ببعض الماء .. غير انني عندما ازحت فتحة البئر شممت رائحة عطنة بشكل مريع تنبعث منه .. لم اراع فقمت بانزال الدلاء فاصطدم بقاع البئر فخمنت ان البئر قد رصت ببعض الحجارة فغطت الماء .. غير انني فكرت قليلاً وقلت لنفسي .. يبدو ان هذه الرائحة العطنة قد جاءت من جثث صاحب المزرعة وزوجته وطفله اذ ربما قتلوهم والقوا بجثثهم إلى البئر .. حركت الدلاء يمينا ويسارا فشعرت ببعض الثقل فيه .. رفعته فاذا به بعض الماء .. لكن رائحة الماء كانت قاتله .. تركت الدلاء وواصلت طريقي إلى البستان المجاور، رأيت هناك بركة كبيرة للري فيها ماتور المياه الذي يضخ الماء إلى قناة توصل بالأشجار، كان الماتور قد علاه الصدأ لقلة الاستخدام، فقد مضى على هروب أصحاب البستان ما يقرب من الشهرين أو ثلاثة، لا أحد هنا، ثم سألت نفسي، هل أستطيع أن أنام تحت شجرة فقد أمضيت الليل سارحًا في ظلامه، كان قرب البركة خيمة مهدمة إلا قليلا، ولجت إليها فإذا بداخلها بطانية قديمة ممزقة، قلت: إذا نمت أخشى أن يأتي اليهود إلي، سأختفي في النهار ومن ثم أواصل طريقي في الليل.

في النهاية حشرت نفسي بين عامود الخيمة واديمها ورحت في نوم عميق، داهمتني الهواجس أثناء نومي، حلم إثر آخر وكلها مخيفة، كنت أستيقظ لفترة ثم أتابع نومي، وعندما استفقت كانت الساعة قد تجاوزت الرابعة بعد الظهر، يا الله، هل نمت كل هذه المدة دون أن أستفق إلا على الكوابيس.

جاء المساء يزحف إليَّ من خلال الأفق بعد اختفاء الشمس، وبدأ الظلام يرسم خطوطه على حواف الأشجار كأنما هي آدمية، كنت أجري حوارا بيني وبين نفسي وكأن أحد الذين أعرفهم يحادثني فيسألني وأجيبه، ثم أسأله فيجيب، ومن خلال الخوف والرعب الذي كان يلفني جاءتني أصوات خفيفة من بين الأشجار، لم أعرف اللغة التي كانوا يتحدثون بها، إنما الأمر يبدو أنهم أكثر من واحد، وإلا لما كان هناك اختلاف في الأصوات، اقتربوا أكثر، فرحت جدًا لسماع اللغة العربية من أحدهم وهو يقول لآخر:

- اخفض صوتك يا رجل، فنحن في مأزق، ولا أريد لأحد أن يسمعنا فتكون نهايتنا.

اختفيت خلف شجرة برتقال كبيرة، إذ لم تتح لي فرصة الوقت أن أهرب من المكان، فقد أصبح الصوت قريبا جدًا، لكنني حاورت نفسي فقالت لي، هؤلاء منا، فلماذا أهرب، ابق حيث أنت وليكن ما يكون، لقد أصبحت حياتي رخيصة مثل البرتقال على الأشجار الذي لا ندفع فيه مقابل أن نأكله، إنها الديار التي تنعي ساكنيها.

اقترب الصوت أكثر فأكثر، ومن خلال ظلال المساء لمحت شبحين يقتربان من مكاني، قال أحدهما للآخر:

- لا أحد هنا، دعنا نقضي الليل هنا ونواصل في الصباح.

قال الآخر:

- على العكس، يجب أن نسير في الليل ونختفي في النهار.

ظهر الاثنان سويًا من خلال العتمة التي يرى فيها الإنسان نفسه ولا شيء غيرها، كان رجلاً في منتصف العمر، وآخر يبدو وكأنه في العشرين، يتحدثان العربية ولا شيء غيرها ولغتهما تدل على أنهما من أهل البلاد.

وفي لحظة هانت علي الحياة فوقفت أمامهما وهما مقبلان علي، رأياني من خلال الغبش الذي يلف البستان، قال أحدهما بصوت كالفحيح:

- يا ويلنا، لنهرب...

قلت له:

- لا تهرب، أنا عربي.

تقدما إليَّ بشيء من الخوف والفزع، فظهرا بثيابهما الرثة التي لوثت بالطين.

(١٣)

كان الخوف وارتجاف الأطراف من الصبي ملحوظًا، أما الآخر فقد تماسك بعض الشيء، جاء إليَّ ومد يده للسلام فرحبت به وقلت:

- من أي بلد أنتم؟

- نحن من بيت دجن، رحل الجميع وبقينا، لكننا قررنا سويًا بعد أن التقينا وبعد أن أصبحت القرية أشبه بقرية أشباح أن نغادر، ولا ندري أهلنا إلى أي مكان ذهبوا.

قلت:

- هل أنتما قريبان أم هو ابنك؟

- تعرفت إليه وأنا أخرج من القرية، كان حزينًا وقال لي: جئت من بستاننا الذي نزرعه بالبرتقال بعد أن سقيت الأشجار فوجدت أهلي قد غادروا، ولم أعرف لهم وجهة، ولم يكن في القرية من أحد أستطيع سؤاله عنهم، حتى وإن كان، فإن الناس مشغولون بأنفسهم ولا ينتبهون للآخرين، قلت: هل تبقى أم ترحل، قال الشاب: بل أرحل، أريد أن أستدل على أهلي، قلت: إذن لنرحل سويًا، فأنا مثلك تمامًا ولكن الفارق أنني قبل أسابيع سمحت لزوجتي وابنيَّ أن يغادروا، قلت لهم إذا سلمكم الله فاتجهوا إلى الأردن أو إلى سوريا، وسأبحث عنكم عندما أغادر.

- ولماذا لم تغادر معهم.

- كنت أمتلك جرارًا زراعيًا فيه بعض العطل فرأيت أن أصلحه ومن ثم أغادر فيه، قلت لزوجتي هذه بعض النقود قد تساعدكم في طريقكم، وحتمًا سوف أستدل عليكم، وما بين بكاء زوجتي وتعلق أطفالي بها قلت لهم، ارحلوا على بركة الله، علنا نلتقي ثانية، لكني لم أستطع إصلاح الجرار الزراعي وتركته في مكانه، وفي غضون عملي بإصلاحه نسيت أن القرية كلها تغادر، ووجدت نفسي وحيدًا، فقلت لنفسي، سألحق بهم أينما كانوا، وهكذا عثرت على هذا الشاب وهو يخرج من القرية ولا يعرف إلى أين يتجه، فترافقنا سويًا.

كان يونان يتحدث إليَّ وفي كل أن يلتقط محرمة ورقية ليمسح دموعه التي سالت على خديه، قال لي:

- إنها ذكرى مؤلمة، لو بقي الناس في أماكنهم لما تشردنا على هذه الصورة.

قلت:

- إنه القدر الذي لا مرد له، ثم تابعت حديثي: أين اتجهت فيما بعد يا يونان؟

- رحلنا ثلاثتنا، كان الرجل الذي التقيت به مع الصبي يعرف المنطقة جيدًا، ولقد كان سببًا في أن ننجو من يد العصابات التي كانت تقطع الطرقات وتقتل الناس فرادى وبالجملة.

أخذنا طريقنا نحو اللد، فرأينا اليهود قد عادوا إليها ثانية بعد أن انسحب الجيش الأردني منها بناء على أوامر من قائدهم الذي كان يدعى... يدعى...

قلت له:

- إنه الجنرال الإنجليزي كلوب...

- نعم، فقد أعادها الجيش الأردني لفترة ولكن أوامر كلوب جعلتهم ينسحبون منها بحجة أن القدس تتعرض للخطر، ويجب على الجيش أن ينسحب من اللد للدفاع عنها، تابعنا طريقنا باتجاه آخر إلى الحدود الأردنية، ولكننا عثرنا قرب الحدود على دورية عدوة تطلق النار في الهواء تخويفًا فعدنا باتجاه المكان الذي كنا فيه ثانية، أخذنا نفكر بطريقة يمكن أن نبتعد فيها عن أولئك خشية أن نقتل، كان المساء يأتي فننام في العراء في أمكنة بعيدة عن الطرقات، لكننا تيقنا أننا نجونا، إذ أن الحدود الأردنية باتت قريبة، فمجرد أن نختفي في هذا الصباح نعود للسير ليلاً ولسوف نصل إلى الحدود.

بعد رحلة محفوفة بالمخاطر وصلنا إلى الحدود الأردنية، فرحنا جدًا عندما رأينا لباس الجيش الأردني، بكينا، استقبلنا الجيش وأعطانا الماء والطعام، ثم اتجهنا إلى بغيتنا في المنطقة العربية.

قلت ليونان:

- هل ذهبت إلى قريتك بعد ذلك؟

- تفرقنا ثلاثتنا عندما دخلنا الحدود، صاحبنا اليافع قال إنه سوف يبحث عن أهله ومن ثم ودعنا، صاحبنا الآخر قال: لا أعرف أين أبحث عن زوجتي وابناي، أما أنا فقلت لهم، عائلتنا في قرية الزبابدة، سوف أذهب إليهم، أرجو أن تجدوا ما تبحثون عنه.

كان اليهود قد اكتفوا حسب تخطيطهم بالمنطقة الداخلية من فلسطين، فبعد أن احتلوا القدس الشرقية وتفرغوا للجيش المصري على الجهة الجنوبية من فلسطين، استقرت الأمور ولم نعد نسمع إطلاق النيران.

أخيرًا وصلت إلى رام الله، كنت أحتفظ ببعض النقود في جيبي، ثم اتجهت إلى مدينة نابلس بالحافلة، وهناك وجدت بالكاد سيارة لرجل من أهل قريتي، وعندما رآني احتضنني وقال:

- هل أنت يونان؟

- نعم.

- قد تغيرت كثيرًا، ما الذي جرى لك؟

- هي غربة دامت سنوات...

وبالمختصر حدثته بما كان مع إخفاء بعض التفاصيل، قال لي:

- نحن في القرية نعرف أنهم قبضوا عليك ولا ندري بعد ذلك شيئا...

- أنا أمامك كما ترى، هذه شائعات فلا تصدقها، ثم سألته، هل أبي وأمي بخير؟

- رأيت أمك قبل عدة أسابيع، كانت تبدو حزينة فتحدثت معها وقالت: اذهب إلى المختار في كل حين اسأله عن يونان، لكنه لا يعرف شيئا، أما أبوك فلم أره منذ مدة طويلة، وربما كان معتكفا حزينا في بيتكم لا يخرج منه.

- وأخي هل رأيته؟

- أخوك في مدرسة الكنيسة أراه في كل يوم تقريبًا وهو يحمل كتبه متجهًا إلى المدرسة، لكني أعتقد أنه كبر ولن تقبله مدرسة الكنيسة وقد سمعت أنه يستعد للذهاب إلى نابلس لإكمال تعليمه الثانوي.

- وهل البلد بخير؟

- كما تركتها لم يتغير فيها شيء يذكر، لقد تغربت لعدة سنوات وبقيت القرية على ما هي، أناس طيبون، ثم تابع باسمًا، وجيران مثل العسل، ما يزال الفقر يعشش في القرية، ولكن، أتعرف أبو إلياس؟

- نعم أعرفه...

- لقد بنى بيتًا كبيرًا في القرية، لأن ولده سافر إلى أمريكا ويرفدهم بالنقود تباعًا...

- أمريكا؟

- نعم.

- سمعت أنها بلد غني كل من يذهب إليها لا يعود إلى بلده الأصلي، لكنه يكسب كثيرًا.

- نقود مثل الأرز، لا تسأل.

جلست في السيارة أحادث نفسي، أمريكا، هل هذا حلم، بعد أن تشردت في بقاع بلدي أفكر الآن بالسفر إلى أمريكا، وظلت هذه الفكرة تنتابني ، وأخيرًا وصلنا.

دلفت إلى المنزل فلم أجد فيه أحد، كان جيراننا يعملون في حقلهم قريبًا من بيتنا فاتجهت إليهم، ذهلوا عندما رأوني، ولكن فتاة منهم أطلقت زغرودة عالية وأخذت تصرخ، عاد يونان، عاد يونان، وما هي إلا دقائق حتى تجمع الناس حولي، سألتهم عن أمي وأبي، قالوا، قد ذهبوا إلى نابلس صباح اليوم، لتسجيل جورج في المدرسة، قلت: يا محاسن الصدف، هو جورج هنا وأنا جورج هناك، قال أحدهم، عم تتحدث، قلت: لا تراع، إنها تخريفات تنتابني في كل حين، وهكذا ذهبت إلى البيت الذي كان مفتوحًا بابه، فمن عادتنا أن نترك بيوتنا مفتوحة عندما نغادر، فلا شيء فيها سوى الفراش والخبز وبعض الطعام، ثم استلقيت على فرشة وسحبت مخدتي ورحت في نوم عميق.

(١٤)

في ساعة أو دون ذلك كانت كل القرية تعرف أنني عدت إلى البيت، تجمع أناس خارج المنزل فاستفقت من نومي على أصواتهم، كان كل منهم يحتضنني ويهنئوني بسلامة العودة، نظرت بين الجمع، أين أمي وأبي وأخي، قال أحدهم إنهم على وصول، فقد قربت الشمس من الغياب، واعتقد أن أخر سيارة تأتي من نابلس إلينا سوف تتحرك أو تحركت إلينا.

جلسنا جميعًا تحت ظل زيتونة عتيقة، وكنت في كل دقيقة وأخرى أنظر إلى الطريق الممتد بين بيتنا ومركز القرية، وأخيرًا، رأيتهم جميعًا، قادمون وأمي تلهث وتركض وأبي وأخي خلفها يركضان، وكأنما جاءتها قوة فأصبحت مثل حصان جامح، لقد أخبروها في مركز القرية أن يونان عاد إلى البيت، وهي تستعجل الوقت للوصول إلي.

هرعت اليها، احتضنتي من خلال أنفاسها اللاهثة، بكت، وبكت، ولم تترك لأبي فرصة أن يتحدث إلي، قال لها ضاحكًا:

- كفى يا امرأة، دعيني أقبله وأسلم عليه...

قالت:

- في البيت متسع، أريد أن أشبع منه.

- إنه عندك طول الوقت، لن يغادر مرة أخرى...

وعندما احتضنني قال هامسًا في أذني:

- أنت بطل يا يونان، تشردك هذا عنى لي أنك فعلت شيئًا لوطنك، يا بني إني أفتخر بك...

ثم أفسح المجال لأخي لكي يحتضنني، بكينا جميعًا، وتجمع الناس أمام البيت كل يريد أن يدعونا على العشاء في بيته احتفالاً بقدومي، ومن ثم رأيت المختار الذي هو قس القرية يمشي وهو يرتدي مسوحه، ولأول مرة أراه بمسوحه يتعثر في مشيته، قالت أمي:

- ها هو (أبونا) قد جاء للسلام عليك.

قلت:

- كان يجب أن أذهب إليه ، على أية حال سأركض إليه واستقبله قبل أن يصل...

هرعت إليه فقبلت يده وقبلني، قال على الفور:

- هل أوصلت المرأة التي أتتنا إلى القرية رسالة أمك وأبيك؟

- نعم...

- إنها سيدة عظيمة خاطرت بنفسها لكي تخبرنا أنك ما زلت حيًا...

هنا تحشرجت الكلمات في حلقي، سقطت من عيني دمعة رغمًا عني، فاحترم حزني وسكت قليلاً ثم قال:

- يا أستاذ وليد...

قلت على الفور:

- أنا لست أستاذا يا يونان، أنا ابنك الذي تعرفه منذ الصغر، فقد فرقتنا الأيام زمن طويلا، ولكني عندما رأيتك تذكرت ما كنت فيه، حتى أني تذكرت كل نأمة وكل كلمة لك عندما كنت تلتقي بأبي.

- كانت أيامًا جميلة رغم بؤسها.

تابع يونان حديثه، بقيت عند أهلي لا أعد الأيام التي قضيتها، ربما كانت شهرا أو شهرين، واعتبرت إقامتي عند أهلي كأنها زيارة واحدة فقط، فقد كانت الأيام تمضي مثل سرعة البرق لا أتابعها، ولكن فكرة السفر إلى أمريكا ما زالت تراودني، فمنذ أن قالها صاحب السيارة التي نقلتني إلى القرية وأنا أفكر بالأمر مليًا، ولكن، كيف السبيل إلى ذلك.

كنت أجلس على مقهى القرية نتسامر مع بعض الشباب فيها، أحاورهم حول السفر إلى خارج البلد وتحديدًا إلى أمريكا، قال لي أحدهم أن هنالك قنصلية أمريكية في القدس، جرب حظك فيها، قلت ساخرًا: لو كان السفر إلى أمريكا متاحًا لكل من يريد السفر لأصبحت البلاد فارغة، كان ذلك في بداية سنة ١٩٥٠ أو ١٩٥١ لا أذكر، وقررت بيني وبين نفسي أن أذهب إلى القنصلية، ولكن حظي أوقفني فقد أذيع في الأنباء أن الملك الأردني عبد الله اغتيل خارج المسجد الأقصى، وأغلقت القنصلية أبوابها قال أحد من في المقهى، سيعاد فتحها، صدقني.

بعد شهر سمعت أن القنصلية الأمريكية في القدس قد فتحت أبوابها، سافرت إلى القدس ودخلت إلى هناك، وعندما أبديت رغبتي , قال لي أحد الموظفين فيها، إذا كان لديك مهنة نطلبها سوف نعطيك تأشيرة زيارة وهناك تتدبر أمرك، ولا تنسى أن المهن المطلوبة مكتوبة على اللوحة في صالة القنصلية، وأشار إليها.

لم أعتد وظيفة في حياتي سوى أن أكون مزارعًا، ذهبت إلى الورقة التي كانت مكتوبة باللغة الإنجليزية والعربية، وقرأتها، إنهم يطلبون مزارعين وبنائين، فرحت، عدت إلى الموظف لأقول له:

- أنا مزارع ولي خبرة سنوات طويلة...

- قد اكتفينا من المزارعين، هل تعرف مهنة البناء؟

قلت له:

- أنا معلم فيها، فقد تعلمت النقاشة على الحجارة واقتطاعها من الجبال...

كنت كاذبا، إذ لم أعمل فيها ولا أعرفها، أضاف الموظف:

- إذا كان معك شهادة تفيد أنك بناء فسنعطيك التأشيرة.

قلت له:

- كنت بناء في فلسطين، وأنت تعرف أن فلسطين الآن محتلة، فكيف أستطيع إحضار الشهادة لك، إذا ضمنت لي الذهاب إلى هناك فإني سأحضرها...

قال ضاحكًا:

- كيف أضمن ذهابك إلى هناك وأنا من نفس المنطقة، فكما طردت منها فقد طردت أنا أيضًا، وأنا موظف جديد في هذه القنصلية.

قلت له مبتسمًا:

- طالما أننا من نفس (الطين) فساعدني...

- انتظر قليلاً...

دخل إلى غرفة من خلال الصالة التي يجلس فيها، وعاد بعد عشر دقائق تقريبًا، قال لي:

- القنصل لا يريد شهادة منك، يكفي أن تحلف يمينا أمامي بأنك تجيد مهنة النقاشة...

- أحلف...

وحلفت له يمينا غموسا أني أجيد المهنة، وهكذا حصلت على التأشيرة على أن أسافر في غضون ستين يومًا، وإلا سقطت المدة المحددة فيها، وكنت قبل ذلك قد استصدرت جوازا أردنيا لداعي السفر.

عدت إلى القرية ورويت ما حدث لأبي وأمي، صرخت أمي وغضب أبي، قالت لي أمي:

- يا بني، ابق في القرية، بلغنا من العمر ما يجعلنا نفكر دائمًا كيف نربي أخاك إذا ما ذهبنا إلى ربنا، أنت المسئول الوحيد عن تربية أخيك...

- يا أمي، أريد السفر لسببين، الأول أنني ما زلت مطلوبًا لحكومة بريطانيا، وأنت تعرفين أن بريطانيا لم تزل في الأردن في شخص قائد جيشها الذي يحكم ويرسم، ولا يمنعه أحد من أن يتصرف في مقدرات البلد، وأخشى على نفسي، وثانيًا، أمضيت العديد من السنوات وأنا متغرب عن القرية، وقد كتب الله لي أن أظل مشردا، دعوني أجرب حظي فقد يمن الله علي بالعمل هناك فارفدكم ببعض النقود وتتخلصون من هذا الفقر.

هدأ أبي، ومن ثم أخذت أمي تفكر بالأمر، قالت:

- لنستشر مختار القرية...

- إني أوافق...

عندما دلفنا إلى المختار في بيته رحب بنا وعرضنا عليه الفكرة، قال لأبي وأمي، دعوه يسافر، إن الأوضاع في بلدنا مأساوية، لا عمل ولا أمل في أن يعيش الإنسان وفق أمانيه، فليذهب يونان إلى هناك، ثم تابع، ألم تروا أن إلياس قد بنى لأبيه بيتا جميلا في القرية، إنه هناك، وهو يرفد أهله بما يقيم أودهم ويجعلهم من الأغنياء.

(١٥)

بعد رحلة دامت شهرا في البحر رأينا أضواء مدينة نيويورك، كانت الأضواء تظهر وتختفي وفق تحرك الباخرة بفعل الأمواج التي كان البحر فيها هائج، كنت في كل آن أتفقد جيبي لأعد النقود التي أعطاها لي أبي نتيجة تأجير بستاننا لسنة في الزبابدة بمبلغ مائة وخمسين دينارا، كان البستان يحوي التفاح والأجاص والتين والعنب والزيتون، لكن أبي ضحى به لجارنا،

في البدء اعترضت أمي وقالت:

- الأرض هي العرض...

- أنا لن أبيعها أو أتخلى عنها يا امرأة، إنه تأجير مدته سنة يستغلها المستأجر ومن بعد تعود إلينا...

سكتت أمي، كنت خجلاً أن يتصرف أبي لتأمين النقود لي بمثل هذه الصورة، لكني قلت في نفسي، سوف أعوضهم بالنقود من هناك.

• • •

تعرفت إلى أحدهم في الباخرة وتصاحبنا سويًا، فإذا به كان مدرسا للغة الإنجليزية في فلسطين، قال لي:

- أنا وأنت غريبان في هذا البلد الذي سوف نستقر فيه، دعنا نتزامل سويًا ونساعد بعضنا بعضا.

- هذا جميل

• • •

قبل أن ينظر الشرطي إلى جواز سفري مليًا في الميناء عددت النقود التي حولتها إلى دولارات في القنصلية الأمريكية بالقدس، دخل إلى غرفة جانبية ولا أدري ما الذي حدث، عاد وقال لي:

- إذا كنت بناء فاذهب إلى أحد هذه العناوين.

وأعطاني ورقة مكتوب فيها بعض العناوين باللغة الإنجليزية، كانت لغتي الإنجليزية عرجاء، ولكني استطعت أن أفهمه وقلت:

- حسنًا، سأذهب...

ثم أعطيت الورقة لزميلي الذي يعرف الإنجليزية فقال لي:

- إنها عناوين يطلبون فيها البنائين في ولاية نيوجرسي، وفي التفصيلات أنهم يبنون جسورًا حديدية ولكنها تحتاج إلى الحجارة المنقوشة لدعم إكمال الجسور...

- هل أخبرك بسر؟ أنا لا أعرف البناء ولم أعمل به يومًا.

- ماذا لو ذهبت إلى هناك ثم اكتشفوا أنك كذبت عليهم؟

قلت مبتسمًا:

- سأتدبر أمري، أو لا أذهب إلى أحد تلك العناوين أبدًا...

- أنت وشأنك.

ولجنا إلى المدينة فذهلنا لما بها من مشاريع بنائية، رأيت أبراج الحديد تعلو في كل شارع، كان الشارع الذي ولجنا إليه مزدحما بالناس، وفي لحظة نظرت حولي، خلفي وأمامي وعلى جانبي، لم أعثر على صاحبي، فتشت المكان جيدًا، ركضت هنا ومشيت هناك، كان كأنه قطعة من الثلج ذابت في يوم صيفي، ما أغباني، عرفت اسمه ولكني لم أعرف تفاصيل أخرى، كيف سأعثر عليه، بقيت أتفرس في الوجوه أكثر من ساعتين، لقد ضاع الرجل أو ضعت أنا، وأخيرًا جلست إلى رصيف الشارع حزينا لا أدري ماذا أفعل.

تفرست في وجوه الناس الذين يسيرون سريعًا؛ كأن كلا منهم على موعد محدد يخاف أن يتأخر عن موعده، رأيت مجموعة من الناس يفترشون الأرصفة ويتسامرون، كانوا على هيئة عمال ثيابهم رثة، لم تكن أمريكا كما هي اليوم، كنت ترى الفقر على وجوه العمال الذين يعملون نهارًا ولكنهم يهجعون في الليل إلى بيوتهم، وكان منهم من ينام على الرصيف أو الزوايا التي تؤدي إلى مسارب شوارع المدينة، وفي المقابل كنت ترى الثراء على وجوه البعض وهم يقودون السيارات الأنيقة في زحمة الطرق، لم تكن الزحمة كبيرة، ولكنها كانت توحي بأن السيارات في ذلك الزمان قد أصبحت هي التي تدل على ثراء الإنسان أو فقره، ومن سوء حظي أنني أتيت بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، كان الناس في عسر شديد، وعلمت ممن يتكلمون على الرصيف أنهم يأخذون مساعدات من الحكومة بعد أن صدر قانون المساعدات الذي أصدرته الدولة بعد الضائقة الاقتصادية التي حلت بالأمريكيين بعد الحرب.

فكرت بنفسي كثيرًا، إلى أين اذهب؟ لا أعرف أحدا هنا، وبعد منتصف الليل بقليل همدت الحركة وقل الناس في الشوارع، نظرت إلى المبنى المقابل فإذا بيافطة مكتوب عليها (فندق)، كان البناء قديمًا بعض الشيء، قمت من مكاني وذهبت إلى الفندق، وبصعوبة استطعت أن أُفهم من كان فيه أنني أريد قضاء الليل هنا، أشار بأصابعه وقال، ثلاث دولارات، مددت يدي إلى جيبي وأخرجت الدولارات الثلاثة ودفعتها إليه، وأرسل معي من يدلني على مكان نومي، فإذا في الغرفة ثلاثة أخر، قلت لنفسي، ما يهم أن هناك فراشا أستطيع فيه أن أخذ قسط من الراحة.

أفقت في صباح اليوم التالي ولم أجد في الغرفة أحدا سواي، كان جسدي كأنما قد أصابه الكساح، يا إلهي، أنا لا أستطيع الحركة، علي أن أنام ثانية، فقد كان النوم يجافيني عندما كنت في رحلة الباخرة، عدت إلى النوم، غير أن حركة غير اعتيادية كانت في الغرفة، فإذا موظف الفندق يلكزني ويقول لي بلغة إنجليزية مكسرة فقد كان أسبانيًّا:

- انهض يا هذا، لقد انتهى يومك، إذا أردت التجديد عليك بدفع ثلاث دولارات أخرى.

- أشعر بالتعب...

- هذا لا يهمني، أنت وشأنك...

- حسن، سأعطيك ثلاث دولارات أخرى بعد أن أصحو...

نظر إليَّ شزرًا ثم قال:

- حسنا، سأتركك على عاتقي، فصاحب الفندق لن يرضى بهذا، سأعطيك ساعتين أخريين كي تنام، لكن عليك أن تدرك أن عدم الدفع يعني أن أستدعي لك الشرطة.

- بإمكانك الوثوق بي، فنقودي مخبأة وإن قمت بالتفتيش عنها فهذا يعني أن يطير النوم من عيني، اذهب يا هذا، وسأكون عندك عندما استفيق.

نظر الي وبالكاد علمت أنه لم يفهم شيئًا .

حاولت النوم ولكني لم أستطع، إذ كنت أسمع خطوات قرب الغرفة أو على بابها، وأن الباب يفتح فينظر أحدهم إليَّ عندما كنت أتظاهر بالنوم، لكنه كان يعود ثانية بسرعة، أدركت أنني أخطأت عندما قلت له إن معي من النقود ما يكفي، وقلت في نفسي، ماذا لو كان لصا، سوف يفتش متاعي لسرقة النقود، وربما كان حدسي صحيحًا، فقد ولج إلى الغرفة عدة مرات، وبعد ذلك قررت أن أستفيق وأرتدي ملابسي وأغادر الفندق.

تركت ملابسي في الفندق ونقدته ثلاث دولارات أخرى، قلت له سأعود في المساء، التقط النقود وقال:

- هل تعمل يا رجل؟

- أتيت بالأمس فقط، ولم أفتش عن عمل بعد.

- ما هي مهنتك؟

- إني مزارع.

- في نيويورك لا يوجد مزارع، هناك في ولاية بنسلفانيا أراض كثيرة بحاجة إلى مهنتك.

- هل تبعد عنا كثيرًا؟

- ساعتان على الأكثر، بإمكانك أن تأخذ القطار إلى هناك، بدولارين.

تجولت في شوارع المدينة، الناس هنا لا ينظرون إليك، فكل مشغول بما يخصه، تمامًا مثلما هي نيويورك هذه الأيام، لا أحد ينظر في وجه الآخر، ترى الناس هائمة في الشوارع وكأنهم في بؤس أو في ضياع، أما المرفهون فإنهم يقيسون الأرض مسرعين بسياراتهم التي تنفث دخانا يلوث الشوارع بشيء من الرعونة.

(١٦)

دلفت إلى الميناء، رأيت عمالاً كثيرين يحملون الأخشاب وأكياس الإسمنت، إضافة إلى آلات كبيرة تنقل أحمالاً مختلفة من مكان إلى آخر، كان البحر واسعًا، وعن بُعد، نظرت فإذا التمثال الشهير الذي يقابل مدينة نيويورك يقبع قريبًا من الشاطئ، سألت أحد القريبين من الميناء، ما هذا التمثال، قال:

- إنه تمثال الحرية، ثم أضاف، هل تعمل هنا في الميناء؟

- كلا، فقد أتيت منذ يومين.

- إذا أردت العمل فإنهم يحتاجون إلى عمال في الميناء لإفراغ السفن.

- ولكن تلك الآلات التي أراها تنقل البضائع من السفن إلى أرضية الميناء...

- إنها لا تكفي، إنهم يطلبون عمالاً، عليك أن تراجع هذا الواقف هناك...

وأشار إلى رجل كان يعطي الأوامر للعمال وقلت:

- ولكني لا أعرف الإنجليزية بصورة جيدة، لن يفهمني.

- جرب حظك...

عندما وصلت إلى الرجل قال لي بلهجة جافة:

- هل أنت من العمال؟

- لا يا سيدي، أنا جديد هنا...

- هل تريد أن تعمل؟

- نعم، إذا أذنت لي بذلك.

- أترى هذا المكتب الذي يقبع قرب الميناء؟

وأشار إليه... قلت:

- نعم...

- اذهب وسجل اسمك واعطهم بطاقتك واحضر إليَّ حالاً.

قلت وأنا أسير نحو المكتب، حسنًا، سأعود إليك، ضحك وقال:

- ستعود حتمًا، لأنك لا تستطيع العمل إلا بعد تجربتك ليوم واحد.

- تعني يوما دون أجرة؟

- بل بأجرة، ولكن هذا يتوقف على حسن عملك، إن كنت نشيطا فسأوصي باستخدامك، وإن كنت غير ذلك عليك المغادرة. أو هكذا فهمت ..

في مكتب العمل بالميناء قابلت امرأة عجوزا لا تعرف الضحك أبدًا، كانت تكشيرتها توحي إليَّ أنها تريد أن تأكل مني الكتف أو الأطراف، قالت بشيء من الغضب:

- هل سبق أن عملت هنا؟

- لا يا سيدتي، فأنا جديد هنا.

- هل تملك إقامة قانونية؟

- جئت قبل يومين فقط.

- هذا لا يهم، أعطني بطاقتك...

أعطيتها جواز سفري، بعد أن تفحصت أوراقه قالت:

- أنا لا أفهم شيئا، إنه مكتوب بلغة لا أعرفها.

- إنني عربي، وهو مكتوب باللغة العربية.

- على أية حال هناك خاتم من الميناء بوصولك إلى نيويورك.

- أهذا يكفي؟

- نعم، يكفي.

رغم أنني تعودت على الشقاء في عملي عندما كنت مزارعا، إلا أن الأحمال الثقيلة التي كانت ترزح على كتفي تعطيني فكرة عن مستقبل العمل في هذا الشقاء، فبعد عدة أيام من العمل المضني ذهبت إلى السيدة التي تقبع في مكتب الميناء لأقول لها:

- يا سيدتي، أنا لا أستطيع أن أعمل أكثر مما عملت، إنه عمل لا يستطيع أن يقوم به سوى أعتى الرجال، وأنت تريننى ثلة من العظم مدهونة ببعض اللحم.

ضحكت وقالت:

- هل تجيد مهنة ما؟

- كنت أعمل مزارعا في بلدي، وأنا ماهر في هذه المهنة...

- على رسلك، انتظر بعد انتهاء العمل ثم عد إلي، ربما كنت بحاجة إليك.

- حسنًا، سأكمل يومي ثم آتي إليك.

بعد انتهاء العمل في ذلك اليوم نقدوني خمسة وثلاثين دولار على عملي الأسبوعي، وعندما رأيت النقود تلمع في يدي قلت: هذا مبلغ كبير، أستطيع النوم في الفندق لشهر كامل، فكرت طويلاً، لماذا لا أعمل أسبوعا آخر...

عند المساء ذهبت إلى السيدة العجوز، قالت على الفور:

- هل جئت؟

- نعم، هأنذا يا سيدتي...

- قلت لي إنك كنت تعمل مزارعا؟

- نعم...

- إذا لم يعجبك العمل في الميناء، فان لي أخا في ولاية بنسلفانيا، له مزرعة كبيرة جدًا، وهو بحاجة إلى عمال، ثم استدركت، هل تستطيع قيادة جرار زراعي؟

- نعم يا سيدتي، فقد كان لمن أعمل عندهم هناك جرارا أقوده بنفسي أحيانًا، وأستطيع العمل كسائق له.

- إذن اتفقنا.

- اتفقنا على ماذا؟

- غدًا يوم عطلة، لن نعمل يوم الأحد، وسأذهب إلى أخي هناك، فإن رأيت أن ترافقني لأقدمك إليه سيكون هذا حسنًا.

- أنا مستعد يا سيدتي.

- أين تقيم؟

- في فندق قريب من هنا.

- أعطني عنوان الفندق وسوف آتي إليك في الصباح عند الساعة السادسة صباحًا، وسنأخذ القطار إلى هناك.

ناولتها عنوان الفندق، قالت:

- إنه قريب من هنا، وهو قريب أيضًا من محطة القطار.

كان القطار ينفث دخانًا عجيبًا يملأ الجو بكآبة، لم تزل الشمس في خدرها، ولم يزل الناس نيامًا، فاليوم هو الأحد، فلا أحد في شوارع مدينة نيويورك إلا لمامًا، أما الدخان الذي كان ينبعث من القطار فدلالة على أن الوقت قد أزف للتحرك، قلت لتلك السيدة التي تجاورني في مقعدي:

- لا أعرف حتى اليوم ما اسمك، ما اسمك يا سيدتي؟

- اسمي جوزفين، وأنا أعمل في الميناء منذ ستة أشهر، وقبل ذلك كنت أعمل في مزرعة أخي، غير أن سوء أحوالي المادية قد جعلني أبحث عن عمل آخر، وأعمل في يوم الأحد عند أخي في المزرعة، فدولار هنا وآخر هناك يمكن أن يجعل مسيرتي المالية مستقرة.

- وهلا يرفدك أخاك ببعض النقود لتحسين وضعك المادي.

- هنا كل مسئول عن نفسه وأمواله، لا تنتظر من أحد مساعدتك حتى وإن كنت أخًا.

- إذن ستصبحين رفيقتي في العمل؟

ضحكت وقالت:

- أنا في هذه السن لا أحتمل الأعمال الشاقة، عملي عند أخي خفيف، وعملي الآخر كما رأيته في الميناء تسجيل الأسماء فقط وتقديمها لصاحب العمل لتعيين الرواتب الأسبوعية.

مر الوقت سريعًا، لم أدرك أننا أمضينا ساعتين من الزمن حتى وصل القطار إلى بنسلفانيا، ومن المحطة استأجرت السيدة سيارة وقالت لي:

- المزرعة بعيدة عن العمران بعض الشيء، يجب أن نستقل سيارة لتوصلنا إلى هناك، فالقطار لا يصل إلا لمحطته في هذه الولاية.

وصلنا إلى المزرعة، رأيت مزرعة واسعة، على امتداد النظر فيها كل أنواع الفواكه معلقة على الأشجار، كأنما هي درر تنادي من يقطفها، وعن بعد رآنا أحد الذين يعملون في المزرعة فقالت جوزفين:

- ها هو مارك قد أتى لاستقبالنا، علينا أن نستقل العربة التي يجرها الحصان لتوصلنا إلى أخي.

نظرت إلى وجه أخيها فانتابني الفزع، كان الوجه مشوهًا إلى درجة كبيرة، يتوكأ على عصا لا تكاد تحمل جسده النحيل، قدمته لي فقال لنا، تفضلوا، أدخلنا إلى غرفة صغيرة في مبنى خشبي ربما كان من عدة غرف، قال بعد أن جلسنا على كراسي خشبية:

- أراك تنظر إليَّ نظرات استغراب، إن تشوه وجهي كما ترى كان نتيجة الحرب، فقد كنت أحد الجنود الذين حاربوا ضد ألمانيا، جاءتني قذيفة شوهتني، ولكنك تراني لم أزل حيًا...

قلت بلغة مكسرة أبحث فيها عن الكلمات المناسبة:

- لقد أديت واجبك، وهذا يعني أنك فعلت شيئًا لوطنك.

- من أي البلاد أنت؟

- من فلسطين...

- وأين هذه الفلسطين من خريطة العالم؟

- إنها الآن إسرائيل.

- إذن فأنت يهودي؟

- لا يا سيدي، أنا فلسطيني.

- أيًا كانت جنسيتك فما يهمني هو عملك، هل سبق أن عملت في الزراعة؟

- نعم يا سيدي، عملت بها سنوات عمري مذ كنت يافعًا.

- إذن عليك أن ترني مواهبك.

قالت جوزفين:

- إنه يستطيع قيادة جرار زراعي.

- هل هذا صحيح؟

- نعم يا سيدي، أستطيع ذلك.

- إذن فتعالوا معي.

دلفنا إلى مخزن جانبي يقف فيه جرار عليه من الغبار ما يكفي، قال:

- هذا جرار لم نستخدمه منذ زمن، ربما كان له بعض الفوائد إن جعلناه يعمل.

- هل هو معطل كليًا؟

- كلا، فقد اشترينا آخر جديدا وأهملنا القديم، ونحن بحاجة إلى جرارين، إنه يعمل ولكنه بحاجة إلى بعض الصيانة .

- اذن، اترك هذه المهمة لي، فأنا ماهر في صنعتي.

- نحن لا نعمل في هذا اليوم لأنه يوم عطلة، ولكننا سنبدأ غدًا، ثم تابع، عندنا مكان مخصص للعمال وهم اليوم في بيوتهم، هل تريد أن ترى المكان؟

- لا بأس.

ركبنا عربة يجرها حصان وطاف بنا في أنحاء المزرعة، أما جوزفين فقد بقيت في الغرفة، ولم أرها بعد ذلك إلا عندما كانت تزور المزرعة بين آن وآخر لتسألني عن عملي، وكان في أغلب الأيام يوم الأحد، وكانت تقول لي: أخي فرح جدًا لأنني أحضرتك إلى هنا، ومكافأة لي على إحضارك فقد أعطاني عشرين دولارًا، بعد ذلك كنت أقول لها إنها كانت سبب الخير الذي أنا فيه، وأشكرها.

(١٧)

تنهد يونان طويلاً، طلب تعميرة أخرى لشيشته التي ينفث دخانها بشغف، أما عبد الرحمن فقد طلب بعض القهوة المرة، وأحضر لي النادل كأسا من الشاي الثقيل الذي أحبه، وفي غضون الدقائق التي تلت جلستنا، كان يونان يسرح بعيدًا كأنما يستجمع أفكاره التي تناثرت، قال لي يونان:

- لقد أرهقتني اليوم يا عزيزي، هل نستطيع أن نؤجل حديثنا إلى يوم آخر؟

- نعم، ولكني أريد أن أعرف نتيجة عملك في المزرعة، قل لي بكلمات قليلة وقصيرة وسأدعك وشأنك هذا اليوم...

تدخل عبد الرحمن وقال:

- لماذا لا نسهر الليلة فتحكي لنا ما الذي جرى، لا شيء يمكن أن نفعله في بيوتنا، هناك الملل والكآبة وهنا الصحبة الجميلة، ثم وجه كلماته إلى يونان قائلا، هل تشعر بالتعب يا يونان؟

- قليلاً...

قلت له:

- يبدو أنك عجزت ولا تستطيع السهر...

قال يونان ضاحكًا:

- فشر، أنا لم أزل في صحتي.

قلت:

- أبقى الله لك صحتك ومتعك بها، إن رحلتك قد ملكت علي نفسي، أريد أن أعرف نتائجها.

- اصبر، إن الله مع الصابرين.

- إذا صبروا.

- أنت تدس في كلماتك دائمًا ما يشجعني على المضي قدمًا في هذه الحكاية التي أراها جزءًا من تاريخ حياتي.

- على رسلك، أنت إنسان مناضل لاقى الأمرين في سبيل الوصول إلى هذه البلاد، ولكن قل لي: هل رفدت أهلك في الزبابدة ببعض النقود التي تقيم أودهم؟

- نعم، كنت أحول لهم النقود عن طريق البنك الذي كانت تستغرق رحلة النقود فيه إلى أكثر من شهر ، ولقد علمت من رسائلهم أنهم بنوا بيتًا جميلاً كانوا يتمنون وجودي هناك ليهنأوا فيه وأعيش معهم، وكانت أمي ترسل إليَّ الرسائل وتطبعها بدموعها التي كانت تسيل على أديم الرسالة، فقد كانت رحمها الله تعرف القراءة والكتابة، ولكن الذي يؤلمني وأفكر فيه دائمًا، أنني لم أرهم بعد قدومي إلى هنا، فقد كنت أعلم ويعلمني البعض أن ذهابي إلى هناك لا يعيدني إلى أمريكا مرة أخرى، فلم أكن قد حصلت على الإقامة فيها بعد، وخروجي منها يعني عدم عودتي.

- كيف حصلت على إقامتك وجنسيتك؟

- أنت تستعجل الأمور، دعنا نأخذ وقتنا في هذا الحديث.

- وماذا بشأن أخيك جورج؟

- لقد تزوج وأنجب، ولكن رسائله انقطعت عني منذ مدة طويلة، ولا أعرف مقره ومستقره، ولقد رفدته بالنقود تباعًا بعد موت أمي وأبي، ولكنه أرسل لي رسالة تقول إن حالته المادية تحسنت كثيرًا، وأنه لا يريد المزيد من النقود، فقد أصبح طبيبًا يعالج المرضى في مدينة نابلس، ولم أسمع منه بعد ذلك، ولكني لا أريد الاستفاضة فيما أقول...

- على رسلك، أنت وشأنك فلا أريد أن أثقل عليك.

- بصراحة أنت نكأت لي جروحي، ولكني سعيد بهذا.

- إذن فلنواصل الرحلة في هذه الليلة، فإني مشتاق لسماع أخرتها كما هي أولياتها.

- حسن، لنسهر حتى إغلاق المقهى عند الثانية صباحًا.

قال يونان:

- أين وصلنا في هذه الرحلة؟

- هل نسيت بهذه السرعة، تركناك في مزرعة بنسلفانيا...

- لم تكن مزرعة بنسلفانيا، فقد كان اسمها مزرعة البرنس.

- وما الذي دعا إلى تسميتها بمزرعة الأمير؟

- لأن صاحبها كان من أصول بريطانية، وأنت لا تعرف البريطانيين فعندهم عقدة الحكم والإمارة، ويسمون أطفالهم حتى على أسماء أمرائهم وقادتهم، حتى أن صديق صاحب المزرعة أنجب طفلاً سماه تشرشل.

- هذا اسم لا أحبه.

قال يونان:

- وأنا أيضًا، ثم ضحك وقال: ولربما ترى أطفالاً آخرين اسم أحدهم بلفور.

- دعنا منهم، هل تكمل؟

- نعم، ثم تنهد طويلاً وقال لم أنم تلك الليلة، ذهبت إلى موقع الجرار الزراعي، أحضرت فوطة وبعض الماء وخلطتها ببعض نقط من الزيت وبدأت بغسل الجرار، بعد أكثر من ساعتين بدا وكأنه جديد، غير أني عولت أن أدير مفتاحه إن كان يعمل أم لا يعمل، وبنقرة واحدة بدأ الجرار بنفث دخانه الذي كان متراكمًا فيه، حتى أنني شعرت بالاختناق فخرجت من المكان واضعًا إصبعي على أنفي، بقيت خارج المكان لفترة ربع ساعة حتى انقطع الدخان الأسود وبدا دخانه الأبيض الذي أفرحني، فالدخان الأبيض يعني أن الجرار سليم ليس فيه من عطل يذكر... في ذلك اليوم كان المكان خاليًا، جاء يوم الاثنين ولم يبدأ دوام المزرعة بعد، أخذت الجرار بعد تشغيله وبدأت جولة في المزرعة، بدأ العمال يأتون، كانوا أربعة في البدء، ثم ازداد العدد فأصبحوا ستة، جاء صاحب المزرعة ونظر عن بعد فرأى الجرار سائرا بين دهاليز الأشجار فصرخ بي عن بعد:

- أنت رائع يا يونان، رائع، أهذا هو الجرار الذي كان خربًا؟

قلت له بصوت يشبه الصراخ:

- الجرار كان يعمل، لم أفعل شيئًا لتشغيله، ولكن الغبار وقلة العمل جعلته في وضع أشبه بالمتعطل.

اقترب مني بحيث بت اسمعه وقال:

- يا الله، إن الجرار يبدو كأنما هو جديد.

- كان بحاجة إلى بعض التنظيف والتلميع.

- إذن فلن تعمل في المزرعة كعامل، بل ستسوق الجرار إلى حيث موطن العمل في المزرعة.

- إن عمل الجرار له موسم فقط، أما العمل في المزرعة فهو متنوع وبحاجة إلى يد عاملة لتسيير العمل.

- مثل ماذا؟

- إن قطف الثمر عن الشجر بحاجة إلى عمال مهرة.

- ولماذا العمال المهرة؟

- لأن قطف الثمرة يوجب ألا تُقطف مع غصنها، فطراوة الغصن وقضمه يعني أن ذلك الغصن بحاجة إلى مدة طويلة من الزمن لكي يتعافى، يجب قطف الثمرة بحيث يظل الغصن سليما.

قال ضاحكًا:

- أنت خبير في الزراعة يا يونان...

أعجبني إطراؤه فقلت:

- سوف ترى مني كل خير، فقد عملت في هذه المهنة مدة طويلة من الزمن واكتسبت خبرة كبيرة.

- على رسلك، لا تتعب نفسك كثيرًا، سأقدمك إلى المهندس الزراعي عندما يأتي في نهاية الأسبوع، ولتتحدث معه ليدلك على أفضل الطرق في قطف الثمار وجمعها وتكديسها في مستودعها تمهيدًا لنقلها.

- يا سيدي، لقد سهرت طيلة الليل لكي أصلح من شأن الجرار، أريد أن أستلقي قليلاً لكي أخذ بعض الراحة.

- حسن، اذهب إلى غرفتك ونم الوقت الذي شئت، ثم تعال إليّ في مكتبي لكي نتحدث طويلاً

أفقت من نومي عند الساعة الثالثة بعد الظهر، كانت الحرارة قد بلغت منتهاها، لكن رؤية الثمر على الاشجار الوارفة أشعرني بشيء من السعادة، واستذكرت أيامي عندما كنت في مزارع فلسطين، وكيف كنا نقطف البرتقال والتفاح وأنواع الفاكهة، أمضيت وقتًا في التجول بين الأشجار اليانعة والفواكه الطازجة والمناظر الجميلة، وفي نهاية المزرعة رأيت اصطبلاً كبيرًا؛ دخلته فإذا به يحوي بعض الأحصنة، فرحت جدًا، لأني لم أرَ مثل هذا الإسطبل على نظافته وترتيبه.

نظرت حولي فإذا لا أحد يشرف على الإسطبل، ولحبي للخيول، فكرت بأن امتطي حصانا أدور به في المزرعة غير أني عزفت عن ذلك، يجب أن استأذن صاحب المزرعة أولاً، خرجت وأدرت مفتاح الجرار وبدأت جولة أخرى، وعندما وصلت إلى مكتب مالكها توقفت، فخرج ليراني مع الجرار الذي كان يلمع في فضاء الشمس، قال لي:

- رأيتك وأنت تتابع سيرك بين الأشجار وفي دهاليزها، هل أعجبتك المزرعة؟

قلت بصعوبة:

- يا سيدي، إنها جنة الله على أرضه.

- ماذا تعني؟

- لا أستطيع تفسيرها لك باللغة الإنجليزية، ولكني فرح جدًا لوجودي في هذه المزرعة.

- حسنًا، يجب أن تتعلم اللغة أولاً، ولغتنا بسيطة يمكن أن تتعلمها في مدار أشهر قليلة.

- أشهر؟ هذا كثير.

- إن العمال الذين استخدمهم كانوا لا يعرفون الإنجليزية جيدًا، وهم من أقطار مختلفة، لكني أحضرت لهم مدرسا للغة، وفي أشهر كانوا يتحدثون بها، ليس بطلاقة ولكني أستطيع أن أفهمهم.

- لقد بلغت الثالثة والثلاثين، أفي مثل سني يستطيع الإنسان أن يتعلم؟

لم يعرف ما عنيته ولكنه فهمه على أقل ما يمكن الفهم، قال:

- العلم ليس له حدود بعمر أو بمعرفة مسبقة، إذا أردت أن تتعلم فبإمكانك.

- حسنًا، سأحاول.

دلفت إلى مكتبه وأجلسني على كرسي خشبي صغير من القش، قلت له حسب ما أعرف من اللغة:

- إن هذا الكرسي يذكرني ببلادي، فقد كنا نستخدم مثل هذه الكراسي في المقاهي.

- إنه خفيف يمكن نقله من مكان إلى آخر، ونحن نستخدمه هنا.

- ماذا عندك، هل أستطيع أخذ فكرة عن عملي في المزرعة؟

- يبدو أنك تعرف الكثير عن الزراعة، ويبدو أنك دمث الأخلاق ومطيع ونشيط، وتعرف كيف تعامل الزبائن الذين يأتون بسياراتهم الكبيرة لتحميل الفواكه، إن تلك السيارات الكبيرة بعضها يحوي مبردات في داخلها، والبعض الآخر يسير مسافة قصيرة قبل أن يفرغها فلا حاجة للثلاجات فيها، ما رأيك أن تكون قيمًا على صادرات المزرعة؟

- يا سيدي، أنا لا أعرف الإنجليزية جيدًا، دع هذا الأمر وأجله إلى أشهر كما قلت.

- كنت قد نسيت ذلك، ولكنك عندما تتكلم الإنجليزية يمكن أن يفهمك الإنسان، عندي بعض الكتب الابتدائية لتدريس اللغة، ما رأيك لو قرأتها وحفظت شيئًا منها؟

- هذا يعجبني...

- إذن سأحضر لك بعض هذه الكتب التي بها رسومات يمكن أن تدلك على اللغة حال عدم فهمها.

أمضينا وقتًا طويلاً وهو يحكي عن المزرعة وعن عملها والعمال فيها، والمهندس الزراعي الذي يزور المزرعة كل يوم جمعة ما قبل العطلة الأسبوعية، ويستشار في كثير من الأمور، تابع:

- وسوف كما قلت لك، أقدمك له لكي يعلمك الأشياء التي لا تعرفها في الزراعة.

- يا سيدي، صدقني أنا خبير بالزراعة وأفهمها جيدًا، جربني فترى مني كل خير.

- حسنًا، دعنا نجول فيها فترى كل شيء عندنا.

- على الرحب والسعة.

كان الوقت يمر سريعًا عندما كنا نتجول في المزرعة، وفي غضون ذلك فهمت أشياء كثيرة عن عمل المزرعة، كان يبسط اللغة فإذا لم أفهم شيئًا ما أعاده لي مرات ومرات، وأوضحه بكلمات يسيرة لكي استوعبها، ثم دلفنا إلى الإسطبل الذي يحوي الخيول فقال:

- رأيتك وأنت تدلف إلى الإسطبل، هل أعجبتك الخيول؟

قلت على حياء:

- نعم يا سيدي، فقد دخلت إلى الإسطبل ورأيت تلك الخيول التي تصطف صفًا واحدًا وكأنما هي في وحدة عسكرية.

ابتسم، وقال:

- هل كنت عسكري في بلدك؟

- كلا يا سيدي، وإنما رأيت الكثير منهم وهم يصطفون زرافات فعلمت أن النظام عندهم كان ضروريًا.

- إن أسوأ مهنة في هذا الكون أن تقاتل الآخرين، أنت ترى ما حدث لي إبان الحرب اللعينة، عندما قاتلت في ألمانيا وضواحيها.

- دعنا يا سيدي في المزرعة، لا أريد أن أعرف شيئًا عن الحرب والحروب، فإني أشمئز منها.

- معك حق.

مسد بيده على رقبة حصان وقال:

- هذا أجمل الأحصنة عندي، وهو حصان عربي أصيل.

قلت بفرح ولهفة:

- عربي؟؟

- نعم.

- أنا عربي وأعرف الأحصنة العربية جيدًا.

- يا لها من صدفة، كنت أفتش كثيرًا عمن يفهم في هذا المجال، وللمناسبة، هل أنت عربي؟ قلت إنك من... من...

حاول التذكر فقلت له:

- من فلسطين.

- وهل فلسطين من العرب؟

- نعم يا سيدي، نحن عرب.

قال مازحًا:

- في المرة القادمة عندما أتجول في هذا العالم صيفًا سوف أزورها.

قلت بحزن:

- لم تعد فلسطين باسمها، أصبحت اليوم إسرائيل.

- أيًا كان اسمها الآن فإني لا أعرف السياسة ولا أفهمها، سأزورها حتمًا.

تابع القول:

- وهذا حصان أحضرته من اسكتلندا، إنه حصان ذكي يفهم حتى اللغة الإنجليزية، فإن تحدثت إليه فإنه يستجيب، ثم استدرك وقال: هل تحب الأحصنة؟

- نعم يا سيدي، ففي بلادنا الكثير من الأحصنة العربية، وقد عملت في مزرعة كان صاحبها يمتلك بعض الخيول فكنت امتطيها وأدور بها على حواف المزرعة حفاظًا عليها من اللصوص.

- وعندكم لصوص أيضًا؟ هنا قبضنا على البعض منهم أثناء سرقتهم للفاكهة، ولكننا تركناهم لحال سبيلهم لأنهم كما قالوا لا يجدون ما يأكلون فيلجأون إلى سرقة الفاكهة لسد جوعهم.

- القلب الكبير يحب الناس أيًا كانوا، فلم يولد هؤلاء لصوص، وإنما هي الحاجة.

قال بعد أن فهم كلامي:

- أجمل شيء في هذا الكون أن يكون الإنسان رحيمًا، وأنا أراك من بعضهم.

- أشكرك يا سيدي، سوف تراني على ما تحدثت به.

تابعت القول بعد سكوت قصير:

- حتى الآن يا سيدي لم تحدد لي عملا أقوم به.

- قبل ذلك هل تستطيع ركوب الحصان؟

- نعم.

وضع يده على مزلاج باب الحصان العربي فصهل الحصان بشيء من الفرح، قال لي:

- دعني أراك كيف تسوسه...

أمسكت رسن الحصان ووضعت يدي على وجهه ومسدته لمرات ومرات، فاستجاب لي الحصان وأخذ رأسه يقترب من رأسي وكأنه يبتسم لي، قال صاحب المزرعة:

- يا الله، هذا الحصان لا يستجيب لأحد غيري، كيف فرح لوجودك.

قلت على قدر ما أعرف من اللغة:

- إنه من أهلي.

- ماذا تعني؟

- إنه عربي، وأنا عربي، وقد عرفني...

ضحك وقال:

- دعني أراك الآن، قده إلى المزرعة في جولة سريعة ثم عد.

قال بعد أن أخذت الحصان إلى خارج الإسطبل:

- هل نسيت شيئا؟

- نعم يا سيدي، أين سرج الحصان؟

- تستطيع أن تمتطيه دون سرج، ولكن السرج في الإسطبل، أحضره إلى هنا، ولونه مثل لون الحصان، لأن هناك أكثر من سرج في زاوية الإسطبل...

- حسن.

ذهبت إلى الإسطبل الذي نقف ببابه وأحضرت السرج فقال لي:

- قد عرفت السرج من النظرة الأولى، أسرج الحصان ثم اذهب به، ليس بعيدًا، ولكني أريد أن أراك وأنت تسوسه وتمتطيه.

(١٩)

كانت قيادة الحصان هينة لينة، استجاب لي بعد أن صهل عدة مرات قبل ركوبه وأراد أن يوقعني أرضًا، ولكني مددت يدي إلى رقبته ومسدتها وأنا أحادثه بالعربية، وبدأ الحصان بالاسترخاء والهدوء، نظرت إلى صاحب المزرعة فإذا به على عجب مما حدث، قال بصوت مرتفع كي أسمعه:

- هل أنت ساحر يا يونان؟!

الحصان بدا مستكينًا، قلت:

- سبق أن قلت لك إنه من أهلي.

ضحك الرجل، وما أن شددت رسن الحصان حتى فر كأنه جني يريد السباق، عاجلته بأن شددت الرسن إلي مرات حتى هدأ، وطفت به أنحاء المزرعة في مدة لا تتجاوز دقائق عشر، ثم عدت به، كان صاحب المزرعة لا يزال يقف بباب الإسطبل، وعندما قدمت قال:

- الآن عرفت أن هذا الحصان من بعض أهلك.

ضحكنا سويًا، استويت على الأرض وقدت الحصان إلى مرقده وصعب علي ذلك، إذ ما أن دلفت إلى مكان الحصان وصاحب المزرعة يرافقني حتى صهل الحصان مرات عديدة، كأنه يستنكر حبسه في الإسطبل، وبصعوبة استطعت أن أدخله، ولكنه كان ينظر إليَّ كأنما يستعطفني أن أعفيه من مكانه الذي يعتبر بيته.

قال لي صاحب المزرعة في مكتبه:

- إنك تعرف في كل شيء، الأحصنة، الميكانيك، الزراعة، ضحك وتابع، ولا بد أنك تعرف كيف تسوس النساء أيضًا...

- أما هذه فلا أعرفها يا سيدي، لم أتزوج بعد حتى أحكم، ومع ذلك فإني لا أريد الزواج في هذا الوقت.

- معك حق، فإنك تستطيع أن تروض أعتى الأحصنة، ولكنك لا تعرف كيف تروض امرأة واحدة.

فهمت ما قال وأجبت:

- هكذا قيل ولكني أخالفهم.

- دعنا من هذه الحكاية، ماذا تعرف أيضًا؟

- زراعة القمح والشعير وأشجار الفاكهة والعناية بها حتى تنمو.

- وأيضًا؟

- أستطيع قطف الثمر بطريقة لا أؤذي بها الشجرة، فالفروع والأغصان بحاجة إلى عناية أكبر؛ خاصة عندما تقطف الثمر.

- دعني أريك بعض الأفدنة التي بحاجة إلى زراعة في أطراف المزرعة، فبعد قليل يحين فصل الشتاء ولا بد من تهيئة الأرض بالسماد قبل البدء بالزراعة الشتائية.

- أنا جاهز.

تجولنا في المزرعة فشاهدت العديد من الأرض البور التي لم تزرع بعد، كانت الأعشاب تغطيها فقلت له:

- قبل أن نبدأ الحراثة علينا بتشذيب الأعشاب وإزالة الكثير منها، إن ذلك يعوقنا عن الزراعة.

- الأعشاب نطمرها تلقائيًا وقت الحراثة.

- كلا يا سيدي، فالأعشاب تنمو ثانية بين المزروعات عند أول الغيث، وهنا نواجه مشكلة أخرى، فاليد العاملة ليست رخيصة هنا، وإزالة الأعشاب يعني إضاعة الوقت دون طائل، يجب قلع الزرع قبل البدء بالزراعة، نحرث الأرض ثم ننقيها من الشوائب، وبعدها تكون جاهزة للزراعة.

- يبدو أنك مهندس زراعي، فهذا كان رأي المهندس عندما زارنا أخر مرة.

- الخبرة يا سيدي خير من الدراسة، أنا أعرف كيف أجعل هذه المزرعة جنة الدنيا.

- إن كنت كذلك، فاني سأعطيك مرتبًا أكثر مما أعطيه للآخرين، ولسوف تكون يدي اليمنى.

فرحت جدًا، عولت أن أخدم هذه المزرعة بكل ما أمتلك من خبرة، وعندما حان المساء، تأهب الرجل لترك المزرعة والذهاب إلى بيته الذي يبعد عن مزرعته بمقدار ثلاثة أميال، ركب سيارته وأشار لي بالتحية، ثم غادر.

أمضيت جزءا كبير من الليل ساهرًا في المزرعة، ورغم الظلام الذي كان يخيم فقد ذهبت إلى الإسطبل لأرى الحصان الذي عشقته، وعندما أضأت النور تحركت الأحصنة كأنما تستقبل ضيفا، فلم تعهد أن يقدم أحدهم في الليل لتفقدها، ذهبت إلى الحصان العربي، وقف بعد أن كان متمددا على أرضية مرقده، نظر إليَّ ورأيت في وجهه ابتسامة، خلته يتحدث إليَّ برقة، قلت:

- نسيت أن اسأل صاحب المزرعة عن اسمك، ما هو اسمك؟

بقيت أحادثه وكأنه إنسان يفهم لغتي، كنت أتحدث بالعربية، وكان الحصان يدير رأسه مستنكرًا مرة وأخرى مصغيًا، مد رأسه إليَّ وبدا كأنه يحادثني في أذني، مددت يدي إلى رقبته وأخذت أهرشها بنعومة، استسلم الحصان لي وبدا كأنه قد استسلم للمساتي الدافئة، بعد فترة ذهبت إلى حصان آخر فصهل الحصان العربي بشيء من الخشونة، قلت في نفسي، إنه لا يريدني أن أتركه، عدت إليه ومسدت رأسه ثانية وثالثة، ثم تركته إلى حصان آخر.

كانت الأحصنة في مجملها جميلة ونظيفة، غير أني نظرت إلى ساعتي فإذا بها قد قاربت منتصف الليل، فأطفأت الإضواء وتوجهت إلى مرقدي، غير أن النوم لم يزرني، كنت أفكر في هذا العبء الذي وضعته على نفسي مختارًا، ولكني كنت سعيدًا فيما وصلت إليه، فلم أحلم يومًا أن أجد في مهنة الزراعة متنفسا لي، غير أني حادثت نفسي، لم أتفق مع صاحب المزرعة على المرتب وعلى النقود التي يمكن أن أكسبها، فأهلي في الوطن بحاجة إلى أن أرسل النقود، وأنا هنا لا أمتلك من النقود سوى ما يقيم الأود، وعولت على أن أكون خادما لهذه الأرض التي أقف اليوم عليها، وأن أكون عند حسن ظن صاحبها، وأخيرًا جاءني النوم فغفوت.

لم أنم سوى ساعات قليلة فصحوت مبكرًا، أحضرت كرسيًا من القش وجلست أمام غرفتي، ثم انتقلت إلى خارج الغرفة انظر إلى الأشجار التي كان بعض الظلام يخيم عليها وكأنها أغصان تتحدث، وجاء إليَّ هاجس ما انتابني عندما تركت بلادي وأنا تائه بين أشجار البرتقال؛ فقلت: سبحان الله وكأني ما زلت في الوطن، هنا وهناك نفس المهنة...

وما لبثت أن تذكرت كل شيء، أبي، أمي، أخي، موطني الذي تركته قسرًا، جيراني، أيام العذاب التي كنت أهرب فيها من بيت إلى آخر ومن قرية إلى أخرى، الموت الذي كان يصادف الناس في الطرقات، أيام عذابات الناس عندما تركوا ديارهم، البيوت التي تركت بعضها مفتح الأبواب والآخر مغلقة، الجوع الذي كان يفتك بالناس وهم هاربون، الصغار الذين فقدوا آباءهم وأمهاتم ولم يستطيعوا الاستدلال عليهم، المدة القصيرة التي أمضيتها مع أبي وأمي، بلدتنا، كل شيء.

بدأ ضوء النهار بالبزوغ، ذهبت إلى مكتب صاحب المزرعة فرأيت الكثير من الأوراق وسلالها في حالة يرثى لها، قمت بتناول المكنسة وأحضرت شيئًا من الماء وفوطة وبدأت بالتنظيف، مضت ساعة أو دون ذلك فإذا المكتب لامعا نظيفا، وقبل ذلك جمعت الأوراق التي كانت متناثرة على أرض الغرفة وكدستها في مكان واحد وقلت لنفسي، عندما يحضر صاحب المزرعة فإنه سوف يفرزها عن بعضها.

قمت بإغلاق النافذة التي كان الهواء يأتي منها فتطير الأوراق في فضاء الغرفة، قلت لنفسي، لماذا يترك النافذة مفتوحة، فلربما أمطرت في عز الصيف فيتبلل كل شيء، ثم قالت لي نفسي، هنا لا يوجد لصوص ليقوموا بالعبث في أوراق الآخرين، ربما كما قال إن هناك بعض اللصوص يسرقون الفاكهة، وما ذلك إلا لجوع أصابهم، ولم أكد أنه تنظيف الغرفة وترتيبها حتى سمعت صوت محرك سيارة خارج المكتب، نظرت من النافذة فإذا صاحب المزرعة يرافق امرأة ويافعان في ريعان الشباب، تركت أدوات التنظيف واستقبلته خارجًا، قال:

- ها يونان، ماذا تفعل هنا؟

- أنظف المكتب من الشوائب...

أشار إلى الشابين وقال:

- هذا مكميلان...

وأشار إلى الآخر وقال:

- وهذا سيمون...

نظر إلى المرأة التي كانت في السيارة وقال:

- وتلك زوجتي سوزان.

سلمت على الشابين ودخلت معهما إلى المكتب، وما أن رأى مكتبه على هذه الصورة حتى صاح مشدوهًا:

- ما هذا يا يونان، لقد أتعبت نفسك فيما لا يجدي، ففي أخر النهار سوف تجد أن الأوراق تطايرت والغبار تكاثف...

- يا سيدي، طالما أنا في المزرعة فإن مكتبك سيظل نظيفًا.

ولأول مرة يحتضنني الرجل ويقول:

- يا الله، أين كنت مختفيًا كل هذه المدة!

- يا سيدي، أنا جديد هنا كما أعلمتك، فلم يصبني الوصب ولا التعب بعد.

جاءت امرأته من السيارة ومدت يدها للسلام بعد أن عرفها بي، قالت عند ما ولجت إلى المكتب:

- لم أرَ المكتب نظيفًا كما هو الآن من قبل.

- سترينه دومًا على هذا الحال.

(٢٠)

في المقهى بمدينة جيرسي، قال يونان:

- لقد تعبت الآن، إضافة إلى أنها بلغت الواحدة والنصف ليلاً.

كان زبائن المقهى يغادرون الواحد تلو الآخر وكل يذهب إلى مستقره للنوم، قلت:

- الحق معك، وأنا آسف لما سببته لك من تعب.

قال يونان:

- على العكس، أنت أعدت لي شيئًا من ذاتي كنت قد نسيته أو على الأقل تناسيته، ثم تابع، متى نلتقي؟

- الوقت الذي تشاء، وليكن ليلاً.

- طبعًا، لأن المقهى لا تفتح أبوابها إلا عند منتصف النهار، ولا يرتادها الزبائن بكثرة إلا وقت المساء.

توكأ يونان على عصاه وتبعه عبد الرحمن، وقبل أن نصل إلى الشارع قلت لهما:

- إن معي سيارة يمكن أن أنقلكما إلى بيتيكما، ففي هذا الوقت لا تجد سيارة في الشارع إلا قليلا، ولسوف تنتظران طويلاً قبل أن تصلا.

قال عبد الرحمن:

- لا بأس...

ولكن يونان قال:

- المكان بعيد بعض الشيء ولا نريد أن نزعجك في هذا الليل.

- لن تزعجني، بل تفرحني.

- إذن أوصلنا إلى مبتغانا، ولسوف تكون الرحلة هينة لأن عبد الرحمن يجاورني في السكن، تابع يونان، لم تقل لي متى نلتقي؟

- هل الغد مناسب؟

- كلا، في الغد سوف أذهب إلى الطبيب وقد أنتظر طويلاً لكي أعرف نتائج تحليل دمي، وربما تعبت فألجأ إلى النوم...

- إذن بعد غد، ثم تابعت: ما رأيك يا عبد الرحمن؟

- أيًا كان الوقت فهو مناسب لي ، فليس لدي ما أفعله في الغد وما بعد الغد.

- إذن نترك الأمر لما بعد الغد.

فوافقا بعد أن قال يونان، نفس الموعد، عند الساعة الثامنة مساء.

قدت السيارة لمسافة تزيد على خمسة أميال، ثم نزلا منها سويًا، وفي غضون عودتي إلى مدينة باترسون، كنت أفكر في هذه الرحلة العجيبة التي قام بها يونان إلى أمريكا.

في تلك الليلة نمت نومًا متقطعًا، واستعدت ذكريات صديقتي الأمريكية التي ساعدتني فيما أنا فيه من عمل ومن إصدار جريدة كنت أحلم بإصدارها مذ كنت يافعًا، ثم انتقلت إلى رحمة الله وهي لم تبلغ الخامسة والأربعين بعد، وأثناء انثيال الذاكرة رحت في نوم عميق.

في اليوم الذي تلى نشطت في إنجاز بعض الأعمال التي تخصني، لم أفعل شيئًا متميزا، فقد كنت قد عولت نفسي قبل أن ألتقي بيونان أن افعل كل يوم جديد ا، ولكن لقائي به جعلني أستعجل الوقت لأن يونان في صحة ليست جيدة، وقد يتأثر لقائي به بما في صحته من وعكات، وفي غمرة زحمة العمل كنت أشغل نفسي لكي يأتي اليوم الذي تواعدنا فيه على اللقاء، غير أن الرياح تجري بما لا تشتهي السفن، ففي اليوم الذي حددناه حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ تعرضت لحادث سيارة كان الأول من نوعه لي في أمريكا...

فقد داهمني سكير وقت السحر عندما كنت ذاهبًا إلى المطبعة، وكانت الأضرار في السيارة فقط، أما أنا فقد خرجت من الحادث سليما سوى بعض الخدوش التي يمكن أن تشفى في مدة قصيرة، وبعد تفكير قررت أن أذهب إلى الموعد حتى ولو استأجرت سيارة أو اتصلت بأحد الأصدقاء لكي يوصلني إلى مبتغاي.

عندما شاهدني يونان وعبد الرحمن فزعا، فقد كان وجهي مليئا بالخدوش وبعض اللاصقات الطبية، قلت لهما:

- لا تفزعا، إنه حادث وقع لي، وقد خرجت منه سليمًا معافى إلا ما تريان.

قال يونان:

- أخبرني ما الذي جرى؟

- دعنا نكمل ما بدأناه.

لكنه رآني تعبًا وقال:

- إذا كنت تعاني فبإمكاننا أن نحدد موعدا آخر.

- كلا، أنا في صحة ليست سيئة، أستطيع السهر لساعتين أو ثلاث دون معاناة.

قال عبد الرحمن:

- أرجوك، إن كنت لا تستطيع السهر فدعنا نأتي في يوم آخر.

- على رسلك يا صديقي، إني في حال ليس من السوء بحيث أؤجل الموعد...

- أنت وشأنك، إذن دعنا نطلب الطعام أولاً، فما زلت دون غداء.

قلت مشيرًا إلى يونان:

- وأنت يا يونان، هل تناولت طعام الغداء؟

- أقول صادقًا: كلا، فقد أمضيت بقية يومي حتى المساء أدخن الشيشة في مكان قريب من بيتي، وكنت أستعجل الوقت للحضور.

جاء صديقي محمد صاحب المقهى ففزع لمرآي فقلت له:

- لا بأس علي يا محمد...

قال يونان:

- لقد تعرض لحادث سيارة داهمته اليوم.

قال محمد:

- هل ذهبت إلى الطبيب؟

- نعم، لقد أمضيت عدة ساعات في المستشفى وأعطوني بعض الأدوية والكمادات التي تراها على وجهي.

وحتى أغير الحديث قلت:

- دعونا مما حدث، أرجو أن نأكل سويًا ومن ثم نتحدث بما عولنا أنفسنا عليه.

جاء محمد بالطعام، أكل يونان بضع لقيمات ثم توقف وقال:

- لا أستطيع أن أكمل طعامي.

قلت بعد أن نظرت إلى وجهه وإلى يده المرتعشة:

- تقول إنك لم تتناول طعامك في الغداء مع أن الساعة تقارب التاسعة مساء.

- لم أكن جائعًا، فقد تذكرت ما كنت قد نسيته منذ زمن.

- وما هو؟

- في مثل هذا اليوم من أعوام مضت كنت قد عولت على الزواج، وكنت في المنزل؛ فجاءتني من أريد خطبتها وقالت: إني جائعة، قلت: في بيتي ما يمكن أن تتبلغي به، ذهبت إلى مطبخ الشقة التي أسكنها وأعددت بعضا من الطعام السريع، وما أن دلفت إليها في مكان جلوسها حتى رأيتها تتلوى من ألم في بطنها وفي خاصرتها، سألتها ما الأمر فقالت إني أعاني من وجع شديد ، لا أريد أن آكل خيفة أن يزداد الألم، قلت: إذن نذهب إلى الطبيب، وهكذا سارعنا إلى المستشفى القريب من بيتي، وعند فحصها قال لي الطبيب أريدها أن تبقى هنا لبعض الوقت، رجوته أن أكون معها لخدمتها فقال: كلا، هي بحاجة إلى فحوصات ربما استمرت أيامًا وستكون تحت رعايتنا، لا تقلق، ربما كان الأمر ليس ذي بال، ولكنها بعد أيام ذوت، ولم يدم وجودها في المستشفى سوى أقل من عشرة أيام فإذا بها في أسوأ حال، لقد تذكرت ذلك فذهبت رغبتي في الطعام، وفي غضون شهر أو دون ذلك فقدتها، أقول لك الصدق، لقد كنت أحبها حبًا عظيمًا، كانت أول امرأة في حياتي رغم بلوغي سنًا لا يجب فيه أن أتزوج.

- كم من الوقت مضى على ذلك؟

- سنوات...

- ألم يئن لك أن تنسى؟

- أنت عجيب، تذكرني بأشياء مرت علينا عندما كنت شابًا يافعًا، وتريدني أن أنسى ما حدث لي في هذا البلد في سنوات قليلة، يا رجل الإنسان مخزن من الذكريات، كلما جاءت تلك الذكريات عزفت عن كل شيء في هذه الدنيا وبقيت ساعات وساعات وأنا أستعيد ما حدث.

- وماذا تفيد الذكريات إن كانت سيئة، أحيانًا أتذكر أشياء مرت في حياتي ولكني أستبدلها على الفور بما أنجزته، فأنسى الأولى وأتمسك بالثانية.

قال بعد تفكير:

- معك حق، فالماضي إذا ما استذكرته عليك أن تنساه إن كان لا يليق، فالحياة تظل مستمرة حتى وإن تبدل وجه هذا العالم.

أخذنا الحديث إلى مسارب شتى، نسينا جميعًا ما الذي أتينا من أجله، كان الحزن يخيم علينا وكأنما جئنا إلى هذا البلد لكي نحزن، قلت فجأة:

- ألا يكفي أننا تركنا أهلنا وأحباءنا في الوطن وجئنا لكي نغير حياتنا؛ فإذا بنا نستذكر الماضي بكل مآسيه...

قال يونان:

- المآسي جزء من حياتك فلا تستطيع نكرانها، ضحك وتابع: ولكني في هذه الليلة سأعمل بنصيحتك، لن أذكر المآسي، نحن هنا في مقهى ندخن ونستمع إلى ضجة الزبائن ونأكل ويجب علينا ألا نتذكر إلا ما مرَّ بنا من مسرات.

- حسن، إذن لنعد إلى مزرعتك التي عملت بها...

- يا ليتها كانت مزرعتي، ولكن رغبتي في الحديث في هذا اليوم ليست كما يجب، علي أن أسامرك في موضوعات أخرى غير ما عولت أنت عليه.

- ما الذي تريد قوله؟

- ما رأيك أن نترك هذه الرحلة لأحدثك بأشياء لم أقلها إلا لنفسي، وإني لاقترح علينا جميعًا شيئًا واحدا، أن يتحدث كل منا عن ذكرياته الجميلة فقط، وسنحدد موعدا آخر لإكمال سيرتي في هذا البلد.

- هات ما عندك.

- سأقول هذه الحكاية في مرة واحدة ولن أكررها، عندما كنت في المزرعة، وبعد مضي أكثر من عشرة أشهر على وجودي فيها؛ جاءت إليَّ جوزفين يومًا وقالت بعد أن تفحصتني: كم عمرك يا يونان، قلت، تقريبًا في الرابعة والثلاثين، قالت: لماذا لم تتزوج؟، قلت مازحًا جدي لي من تناسبي ولسوف أتزوج غدًا، قالت هل ينفع ذلك أن أكون زوجتك، قلت: كم عمرك يا جوزفين؟، قالت في الخامسة والخمسين،

ولكني نشطة كما ترى، أستطيع أن أخدمك وأخدم بيتي دون ملل، قلت وقد كنت قد تعلمت اللغة إلى حد ما: ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج، قالت، ماذا تعني بقولك، قلت: هذا بيت من الشعر استذكرته عندما كنت شابًا في البلاد، قالت: ماذا يعني، قلت: إنه يعني أن الفرج قريب، قالت: لم أفهم، قلت: احسن، ولم نأت إلى هذه السيرة ثانية رغم وجودي في المزرعة لأكثر من عشرين عاما متوالية، حتى بلغت من العمر ما هو زائد عن عمري، جاءت مرة لتعتذر عما قالته فقلت لها: ما الذي أعجبك بي حتى تخطبيني، قالت: أخلاقك وحلمك وحسن تصرفك، قلت: يا سيدتي اعتبريني لم أجبك على سؤالك إلا بجواب حسن، ضحكت وقالت: هذا ما عولت عليه، ولذا لم أعدها عليك ثانية لأني أدركت خطأي؛ ثم أردفت فكرت في أن أهديك شيئًا يظل في ذاكرتك، أن أمنحك إقامة في هذا البلد حتى تظل فيها، وضحكت هي، وضحكت أنا.

(٢١)

قال يونان في موعدنا الذي أزف بعد أيام:

- إني أذكر بعض ما مر بي جيدًا، ولكني أنسى الكثير فأقوم بمراجعة نفسي عندما أكون وحيدًا في بيتي.

قلت له:

- أريدك أن تتذكر كل نأمة وكل حادث مر بك سواء كان سيئا أو حسنا، قصتك يا سيدي مفرحة ومحزنة معًا، ولسوف ترى الكثير ممن يرونها غريبة وعجيبة، ولو أنك لم تعتبرها كذلك، فأحداثها لا تشي إلا بأمور عادية في نظرك، أما في نظر الآخرين فهي مختلفة.

قال يونان:

- أتعرف، عندما أكون وحيدًا في بيتي تتجمع هموم العالم كله وتنصب على رأسي كالصواعق، حياتي كلها هروب واختفاء، ولم أسعد يومًا إلا عندما كنت في المزرعة، وأشعر عندما أستذكر الماضي أنني هرمت فأصبحت أثرا من التاريخ؛ تمامًا مثلما هي الأهرامات أو التماثيل الشمعية أو الحجرية.

- دعنا نتحدث عما مر بك في المزرعة.

- لا بأس.

مضت الأيام سراعًا، تفقدت جيبي فإذا به مليء بالنقود، كنت أقبض أسبوعيًا خمسة وسبعين دولارا، وهو مبلغ يمكن أن يجعلني غنيًا في ذلك الزمن إذا ما أمسكت يدي وأصرف بالحكمة، فطعامي كان مجانيا من المزرعة، يقوم العمال بالطبخ على الحطب فيأكل كل منا وجبته دون أن يدفع شيئا، فقد كان صاحب المزرعة كريمًا ففيها الخضار والفواكه والأوز والحمام والدجاج أكثر من أن يحصى، وأول ما عولت عليه أن أرفد أهلي في الوطن بشيء من النقود تجعلهم يعيشون عيشة كريمة.

كنت أتلقى الرسائل منهم وأقرأ بين سطورها فرحتهم، صحيح أن الرسالة كانت تستغرق شهرا أو دون ذلك حتى تصل، ولكن ذلك كان يفرحني جدًا، إذ كان ساعي البريد يأتينا إلى المزرعة يمتطي حصانه كل أسبوع مرة، وهو يحمل ما في جعبته من الرسائل، وقبل أن أفتح مغلف رسالة أمي أشمها فأرى فيها عطرا لذيذا يخدرني بالمحبة، وأحيانًا بالحزن لبعدها عني، غير أني ألفظ ما بي من حزن لابتسم لنفسي، إذ لا أحد يمكن أن يواسيني مثلما تواسيني دواخلي، لك الله يا أمي، لو أنني امتلكت كل هذا العالم يومًا فلن أفرح مثلما كانت فرحتك يوم جئت إلى البيت بعد هروب طويل.

ذهب الصيف وجاء الشتاء، ثم الربيع، وتبرعمت نبتات الفصل فاخضرت الأرض بعد طول يباس، أصبح الحصان العربي صديقي، فما أن يراني حتى يصهل عاليًا، وفي مرة رآني فتمرغ على الأرض فرحًا فعجب صاحب المزرعة من هذا التصرف ليقول لي:

- أتدري، هذا الحصان يعرفك جيدًا، فما أن يراك حتى تنتابه موجات من الفرح.

كنت أشرف عليه إشرافًا تامًا وكاملاً، ومثلما أعامله أعامل الأحصنة الأخرى، ولكن هذا الحصان له في قلبي محبة لا يعرفها إلا من يحب الأحصنة.

وبعد مضي ثلاث سنوات أو دون ذلك على هذا الحال، جاء صاحب المزرعة إليَّ مبتسمًا هاشًا فقال لي:

- افرح يا يونان، فإن لك عندي خبر يمكن أن يجعلك تطير فرحًا.

- ما الأمر؟

- لن أقول لك حتى تتغدى معي في المزرعة.

قلت وقد أصبح ما بيني وبينه صداقة وليس عملاً فقط:

- حسن، سوف أتغدى معك، ولكن ليست هي المرة الأولى التي نتناول غداءنا معًا...

- اليوم أمر مختلف...

- قد شوقتني، فما الأمر المختلف؟

- لقد أصدرت إدارة الهجرة الأمريكية مرسوما يقضي بإعطاء الإقامة الدائمة لمن يعملون في المزارع، وهذا القانون ينفذ مفعوله اعتبارًا من الأشهر الستة القادمة، علينا بالاستعجال في تقديم طلبك حتى تكون من أوائل الذين يقدمون لتلك الإقامة.

قلت فرحًا:

- أهذا صحيح، إذن أستطيع بعد سنة أو دون ذلك أن أسافر إلى بلدي لأرى أمي وأبي وأخي ومن ثم العودة؟

- أهذا ما فكرت به في يومك هذا، أن تسافر؟

- نعم، فقد اشتقت إلى أهلي هناك.

قال بعد تفكير قصير:

- اسمع، إذا ما سافرت فإني سوف أسافر معك متنزهًا، لأني منذ زمن أخذني العمل بعيدًا فنسيت نفسي.

قلت فرحًا:

- أهذا صحيح؟

ثم انتابتني موجة من التفكير:

- ولمن نترك المزرعة؟

- جوزفين يمكن أن ترعاها حتى نعود، هذا أولاً، وثانيًا: قد يعجبك المقام هناك فلا تأتي إلى هنا مرة أخرى.

- كلا، لن أنسى صداقتي معك ومع الخيل والمزرعة.

قال بعد تفكير:

- ولكن جوزفين قد أصابها المرض فلا تستطيع أن تشرف إشرافًا كاملاً على المزرعة، فغيابك وغيابي يمكن أن يصيبنا بما لا نرغب أو نشتهي، ثم أردف، حسنًا، دع ذلك الأمر حتى نفكر فيه جيدًا، ثم استدرك، يمكن أن أكلف أحد أبنائي بالإشراف على المزرعة...

ثم صمتنا...

بعد أشهر قدمت طلبًا للهجرة، كان القدوم إلى أمريكا والإقامة فيها هينًا في ذلك الزمان، وبعد أسبوع من تقديم الطلب ذهبت برفقة صاحب المزرعة إلى مكتب الهجرة، وفي غضون ساعة كان جواز سفري الذي بات قاب قوسين أو أدنى من انتهاء صلاحيته، مختومًا بخاتم دائرة الهجرة من أنني مقيم شرعي، وفي رسالة لمكتب الهجرة تقول: انتظر حتى تصلك الإقامة في البريد خلال عشرة أيام، وهكذا كان.

كانت فرحتي عظيمة لا تقدر، ولكن أمر جاءني على حين غرة؛ في رسالة مدة وصولها أكثر من شهر؛ تقول إنني فقدت أبي، وقالت الرسالة التي كتبتها أمي ودموعها تتساقط على الورق، أن القس طلب من أبي وهو على فراش المرض أن يتمنى فقال: أريد أن أرى يونان، بكى القس وبكت أمي، لكن أمر الله نفذ.

أصبح من الضروري أن أسافر إلى الوطن، وحسبت المدة فوجدتها أكثر من ثلاثة أشهر، إذ يستغرق السفر بالباخرة شهرا على الأقل، فأجلس هناك شهرا عند أمي ومن ثم أسافر لشهر آخر حتى أصل إلى نيويورك وبنسلفانيا، غير أن الظنون أخذت تنتابني في بهيم الليل، فلم تكن الطائرات في ذلك الوقت تسافر رأسًا إلى البلد الذي تريد السفر إليه، بل كانت الطائرة تستريح في مطارات هذا العالم لمرات ثلاث حتى تصل إلى بغيتها في عمان، ومن ثم تستقل سيارة إلى الضفة الغربية من الأردن، وربما ضاع الوقت حتى تجد سيارة تنقلك.

وتناوشتني الظنون كلما وجدت نفسي أنني يجب أن أنام لكي أباشر عملي في الصباح الباكر، كنت أفكر في تذكرة الطائرة التي سوف تستهلك الكثير مما أختزن من مال، وقلت لنفسي، إن أمي بانتظار أن أرفدها ببعض النقود إضافة لمصاريفي هناك، فالأهل والأحباب يظنون أن من يأتي إلى أمريكا يمكن أن يصبح مليونيرا في غضون أشهر، ولا يعرفون أنك لا تحصل على الدولار إلا بعد أن تجف عروقك، فلا تستطيع إلا أن تزور الطبيب في كل آن لفحصك، يهرم الإنسان نتيجة العمل المضني فلا يستفيق إلا بعد أن يقع الفأس في الرأس، فإذا به رمة تأخذه الأيام بعيدًا فلا يدري أكان على صواب عندما أتى أم كان مخطئًا، وقر رأيي على أن أسافر بالباخرة، فهي أرخص سعرًا كي أوفر بعض ما يحتاجه الأهل هناك، وأخيرًا هجعت إلى فراشي قلقًا فنمت نومًا عميقًا.

أفقت عند الصباح فإذا صاحب المزرعة قائم فوق رأسي ليقول لي:

- إن المهندس الزراعي يطلب إليك أن تأتي إليه في المزرعة.

- دقائق وسأجهز نفسي...

ذهبت إليه فقال:

- لا أخفيك أنك تقوم بعمل جيد في هذه المزرعة وكأنما هي لك.

- أنا رهن إشارتك، أشكرك على هذا الإطراء.

- أنت تقوم بعمل ثلاثة عمال على الأقل، تحرث الأرض بمحراثك، تسقي الزروع إن طلبت الماء، تقوم برعاية الخيول جميعًا، تقوم بالإشراف على تحميل السيارات التي تنقل الخضار والفواكه إلى المدن المختلفة، أريد أن أكلفك بأمر آخر، فإن كنت قادرا على تنفيذه قل، وإلا فسنأتي بعامل متفرغ لهذه المهمة.

- وما المهمة يا سيدي؟

- أتعرف ما ينقص المزرعة؟

- كلا، إنها تحوي كل أنواع الفواكه والخضار فلا داعي إلى المزيد.

- بل هي بحاجة إلى أن نزرع فيها تكعيبات العنب.

- يا الله، لقد ذهب عني هذا الأمر.

- يقال إن في بلادكم الكثير من العنب، وأنت بصفتك خبير زراعة فلا بد أنك مارست هذه المهنة هناك، فالدوالي تريد عناية فائقة حتى تكبر، ومن ثم بعد أن تنمو تتسلق على العرائش فتصبح جنة منظرًا ومخبرًا.

- معك حق، فقد كان لي في زمان مضى رفقة مع هذه النبتة.

- ما رأيك أن نركز النبتة على تكاعيب خشبية كي تتدلى العناقيد دون أن تلامس الأرض؟

- هذا رأي حسن.

- إذن نستقدم نجارا أو بناء لا فرق كي يقوم بهذه المهنة.

قلت على الفور:

- ولماذا النجار، أستطيع عملها بنفسي، فقد كنت أفعلها يوم كنت في بلدي.

- إذن توفر على صاحب المزرعة الكثير من النقود، في الغد سوف أذهب إلى مخزن لبيع الأخشاب لا يبعد كثيرًا عن منطقتنا هذه، ولسوف ترافقني إلى هناك لانتقاء ما يلزم من الأخشاب.

- أنا جاهز منذ الساعة.

جاء صاحب المزرعة وانتحى بالمهندس الزراعي جانبًا وتحادثا، لم أكن أسمع ما يقولان، ولكن صاحب المزرعة جاء إليَّ وقبَّلني وضرب على يدي كفًا بكف ليقول:

- أنت مبهر يا يونان.

ذهبنا ثلاثتنا إلى مخزن الأخشاب، وانتقيتها بنفسي، وفي غضون ساعات كانت الأخشاب تودع في المستودع الكبير إلى جانب إسطبل الخيول.

(٢٢)

مضى من الوقت عدة أشهر حتى جاء الصيف، وعلى جوانب المزرعة كانت نبتات العنب ترتفع بقاماتها ثم تعشش على التكعيبات الخشبية، تتسلق كل يوم ما يزيد عن اليوم الذي مضى، لم أفكر طيلة عملي في زراعة العنب أن أسافر إلى البلاد لأنني كنت أرغب في النجاح فلا أترك العمل لمن لا يتعهده مثلي، وفي غمرة العمل، نسيت السفر وتأقلمت مع جو المزرعة ومع العمال وصاحب العمل والمهندس والسائقين الذين يأتون لتحميل الخضروات والفواكه على أنواعها للسوق الأمريكي، مع ما يستتبع ذلك من العناية بالخيول...

شيء فشيئا بدأت نسيان الوطن الذي أحبه فلا يأتي إليَّ إلا لمامًا، عندما أتذكر أهلي هناك فقط، غير أني في بعض الأحيان التي لم تتجاوز أصابع اليد الواحدة، كنت أستفيق ليلاً لألوم نفسي على تقصيري، ومن ثم مضى من السنوات ما يكفي للتذكر، ففي مرة جاءتني أمي في حلمي صبية مثلما رأيتها قبل سنوات طويلة عندما كنت يافعًا، مسدت شعري وقالت: يا صغيري، عليك أن تستفيق لتذهب إلى مدرسة القرية، أفقت من نومي فزعًا، وتكرر ذلك مرات عديدة كنت أراها في كل مرة مختلفة عما رأيتها فيما سبق، ولم أرَ أبي في منامي مثلما كنت أرى أمي، غير مرة واحدة عندما احتضنني وقال لي: أنت بطل يا يونان، تشردك في البلاد يعني أنك فعلت شيء لوطنك، عندها أفقت فزعًا...

كان قد مضى على موت أبي من السنوات لا أدري عددها، ومع مرور السنين والأيام؛ أصبح الوطن في ذهني ذكريات تأتيني عبر السنوات تائهة، كأنها تتحدث من بئر عميقة، فلا أدري إن كان حلمًا أم شبه حلم، ومن بعد ذلك، مرت سنوات كانت كئيبة فلم أعد أذكر فيها الوطن، وكنت قد أصبحت شيئًا له قيمة في المزرعة، فعدد السنوات التي أمضيتها زادت عن الخمس عشرة سنة، تعلمت خلالها اللغة الإنجليزية على خير ما يتعلم الناس، وأصبح لي بيتا صغيرا أعتز بالسكنى فيه، ليس بعيدًا عن المزرعة، واقتنيت جوادًا أصيلاً أهداه لي صاحب المزرعة، وحصلت على الجنسية الأمريكية بعد سنوات قليلة من حصولي على الإقامة الدائمة، واشتريت قطعة أرض صغيرة أزرعها بالبرتقال والعنب...

غير أن الأيام التي ساقتني إلى النسيان، لم أنسَ فيها اليوم الذي مر بي في صباح يوم مشمس، إذ نقل ابن صاحب المزرعة خبرا أزعجني كثيرًا، فقد مات صاحب المزرعة، وكأنما أصبت برعشة في قلبي جعلتني أقترب من الغثيان، بكيت كثيرًا، فقد كان لي كما الأب في وقت لا أجد فيه أبي، واستذكرت الوطن ثانية، موت أبي، بعدي عن أمي الذي جاءني نعيها بعد خمس سنوات من موت أبي، أخي الذي فقدت أثره وكانت أخر رسالة منه تقول لي ألا أرسل إليه النقود لأنه لا يحتاجها، وأنه تخرج طبيبا ويعمل في مهنته بنجاح، ولم يأتني منه رسالة تنبئ عما حدث له فيما بعد، رغم أنني أرسلت إليه العديد من الرسائل ولكن لا جواب.

بعد موت صاحب المزرعة أمضيت سنة أو دون ذلك أخدم في المزرعة بعد أن تولاها ابنه الأكبر، غير أن الأيام تغيرت، ومع تغيرها كان الابن الأكبر الذي استلم مقاليد الأمور بعد موت أبيه خير سوء فيما آل إليه من ثروة، فقد كان مقامرا، وأقام مصنعا صغيرا لتقطير الخمور مما تنتجه المزرعة من الأعناب، وتأخر في دفع رواتب العمال ورواتبي حتى بات الجميع يتذمر مما يفعله، ولم يسدد أقساط مصنعه الصغير الذي بناه لتقطير الخمور، وكانت أمه تحاول إصلاح ما أفسده غير أنها لم توفق، إذ كان يستأثر بما تأتي به المزرعة من نقود فيضيعها على نزواته.

وفي مرة تفقدت العمال فلم أجدهم، فقد تركوا العمل لقلة الموارد وعدم صرف رواتبهم، كما تفقدت الخيول فلم أجد حصاني العربي الذي أحبه، كان قد بيع بحفنة من الدولارات لا تساوي ربع قيمته الفعلية، إذ رفض الأب المتوفي بيع الحصان بملايين من الدولارات، ولكن ابنه باعه بحزمة من الآلاف خسرها في لعب القمار، كانت أمه تأتيني باكية، ولم أستطع أن أساعدها لأنه كان عنيدًا لا يستمع لأحد، واستتبع ذلك أيضًا بيعه لمجمل الخيول فأصبح الإسطبل فارغًا...

وفي يوم غابت شمسه نظرت فإذا بي وحيدا هناك، وجاءني الابن لكي يقول لي:

- سوف أبيع المزرعة، هناك مشتر يمكن أن يأتي لشرائها، فإن أتى فأخبرني هاتفيًا لأنه لم يحدد لي موعدا لقدومه ..

- يا سيدي، مضى علي أكثر من ثلاثة أشهر لم أخذ فيها راتبا يعينني على تصاريف الزمن، فإن سمحت أعطني شيئًا من رواتبي...

- عندما أبيع المزرعة سوف أعطيك كل مستحقاتك.

وبيعت المزرعة، ولكنه خسر نقودها أيضًا، ولم يعطني شيئا.

ذهبت إلى بيتي وقطعة الأرض التي أزرعها، أقمت فيها مدة سنة، غير أن إمكاناتي المادية لم تسمح لي آنذاك بزراعتها كما يجب أو أعتني بالبيت عناية كلية، إذ كان علي أن أعمل لكي أكسب رزقي ودفع أقساط بيتي...

وفي مرة فكرت طويلاً فإذا بي أقرر بيع البيت والحصان وقطعة الأرض وأكتب ذلك في جريدة محلية صغيرة كانت تصدر في بنسلفانيا، وجاءني مشتر فبعت البيت وقطعة الأرض والحصان معًا، وارتحلت إلى ولاية نيوجرسي لأن العرب فيها كانوا من الكثرة بحيث أستطيع العيش بينهم، واخترت مقامي في مدينة جيرسي.

لم أعمل بعدها في أي عمل منتج، فقد اعتمدت في مصروفاتي على النقود التي أتت لي نتيجة بيع بيتي وقطعة الأرض وثمن الحصان، غير أن السنوات مضت، وفي كل سنة كانت النقود تقل بيدي حتى أنني في يوم ذهبت إلى البنك فإذا بي أجد عدد الدولارات لا يفي بسكناي في بيت مستأجر لمدة شهرين، فلجأت إلى الكنيسة، ساعدوني بعض الشيء، ولكن ذلك لم يكفِ، فقدمت طلبًا للمساعدة من الدولة فإذا بي أحصل على مائة دولار شهريًا، وكان ذلك في سنة ١٩٧٠.

أقمت في جيرسي مدة طويلة قبل أن أتعرف إلى فتاة خلتها ستصبح زوجتي بعد أن تجاوز عمري الخامسة والستين، ولكني فقدتها كما قال لك عبد الرحمن في ظروف لم أفهمها حتى الآن، وانتابتني الأمراض فغدوت أزور الطبيب كل أسبوع مرة أو مرتين، وهكذا تراني أتردد على هذا المقهى ليس من أحد ليواسيني غير صديقي الذي يجلس أمامك، إن حاله يشابه حالي تقريبًا، فقد نسي أهله أو نسوه عندما كبر أولاده، ولم يعد أحد ليسأل عن أحواله، إننا نمضي أوقاتنا في هذا المقهى أو في بيت أحدنا نتسامر، فالحياة دون أصدقاء لا جدوى منها ، ولا أمل في رجوع ما قد مضى.

• • •

سرحت طويلاً، ظننت أنني أحلم، وتذكرت يونان عندما كان يدعى جورج في قمة نشاطه يرتدي قمبازًا مقلمًا، عاودتني الذاكرة أعمق وأكثر، فمرَّت بي ذكريات كأنها وقعت الساعة، أو كأنه حلم قدري لازمني منذ زمن ولكني أتناساه لأن الأيام كانت فيه مريرة وجميلة معا .

نظرت إلى وجه يونان فإذا بدموعه قد بللت وجهه، قمت إلى يده وقبلتها وقلت:

- عم يونان، أنا في خدمتك، إن احتجت إلى شيء فأنا هنا قربك، هذا رقم هاتفي وذلك الكارت الخاص بي، فإن رغبت أن تتصل بي لأي سبب فافعل...

- إنها ليست النهاية، سوف نلتقي ثانية...

- متى؟

- الوقت الذي تشاء.

أخذت رقم هاتفه وعنوانه وقلت له:

- سأتصل بك.

- وداعًا، لا تنسَ أن نلتقي ثانية.

- سوف نلتقي...

وهكذا توجهت إلى مدينة باترسون وانفعالاتي تغلبني، فمرة أضحك، وأخرى تدمع عيناي، وثالثة يختلط علي الأمر فلا أدري ما أفعل.

(٢٣)

بقيت عدة أيام لم أستطع أن اتصل بيونان أو يتصل بي، كانت ظروفي صعبة في عملي، وكانت ظروفه أصعب عندما لم يجد ما يقوله لي ، لكنه كما قال فيما بعد على شوق للقائي، وفي يوم كانت السماء فيه غائمة، والمطر مدرارًا على صفحة وأديم الأرض فإذا بي أتلقى مكالمة من محمد صاحب المقهى، قال لي:

- صديقاك هنا ينتظرانك.

قلت له:

- أمن غير موعد؟ إنني مشغول في هذا اليوم حتى حدود رقبتي...

- انتظر على الخط قليلاً...

انتظرت وعاد يقول لي:

- إنهما بانتظارك ولو أتيت حتى ما بعد منتصف الليل.

قلت على الفور:

- إذن سآتي.

عند التاسعة مساء توجهت إلى جيرسي ستي، وهناك رأيت الصديقين يجلسان وكل وضع يده على خده وسرح في ملكوت الله، راقبتهما عن بعد ونظرت إلى وجهيهما، كانا حزينين ومتعبين، وخمنت أن يكونا أيضًا خائفين أو مريضين لأن أطرافهما مع كبر العمر تتأرجح يمينًا وشمالاً، وعندما دلفت إليهما قام يونان من مكانه بصعوبة، وتبعه عبد الرحمن ليقول يونان:

- ها قد جئت أخيرًا، كنا نخمن أنك لن تأتي.

قلت:

وما الداعي لذلك، لو لم أكن مقررا أن آتي فإني سأقول لكما ولا أجعلكما تنتظران كل هذه المدة...

قال عبد الرحمن:

- إن صحبتك جميلة، لذا فقد عزمنا ألا نغادر قبل أن نراك ونتحدث إليك.

قلت على الفور:

- هل من جديد؟

قال يونان:

- لا جديد، وإنما هي الصحبة والمحبة، فقد اعتدنا على حديثك واتفقنا على ألا نرحل حتى تأتي.

جلسنا طويلاً، تحدث كلاهما عن الظروف التي مرا بها، لم تكن لتعنيني من ناحية تسجيلية ولكنها كانت تؤثر في عواطفي حتى العمق، ومن ثم جاء يونان بما هو بيت القصيد...

قال يونان:

- قبل أن تأتي تحدثت إلى عبد الرحمن وقلت له: لا بأس من أن ينشر وليد قصتي، ولكني رجوته فيما سبق أن ينظرني أربعة عشر عام أخرى لكي يكتب ما يريد كتابته، ليس لأمر مهم، إذ أنني كنت مخطئا في تقدير ما كان يقوله، ولكني أعطيت وعدًا له أن ينشر ما يريد بعد تلك المدة، عل الناس تقرأ قصة المهاجر الذي جاء إلى موطن غير وطنه ثم نسي الوطن ولم يعد يذكره إلا لمامًا، فلم يبق له أحد فيه، تفرق الأهل وماتوا ومن بقوا نسوا، أما ما حدث لي إبان وجودي في بلدي من اتهام لي بقتل أحد الجنود فإني لا أهتم كثيرًا بذلك، أعرف أن الحكم قد سقط بالتقادم، فإن لم يكن ليسقط فإني لا أهتم للعواقب، فأنا في سن تجاوزت فيها الخوف على نفسي، وهكذا تمضي الحياة...

قلت:
- يا يونان، إن أربعة عشر عاما مدة طويلة، فلماذا كل هذه المدة؟
- لأنني لن أعيش حتى أبلغ ذلك العمر، بإمكانك بعدها أن تفعل ما تشاء.

مضى بنا الوقت سريعًا، نظرنا إلى المقهى فإذا بها فارغة إلا من بعض الزبائن الذين يلعبون الورق ويصرخون ويهزجون ويتمازحون، وأحيانًا يغنون، وتارة يندبون حظوظهم في عملية بكائية للأهل والأصدقاء والأحبة والفراق، سرحنا جميعًا ولم ينبس أحد منا ببنت شفة، ظللنا صامتين فترة طويلة قبل أن يظهر التعب على وجه يونان، فقام من فوره وقال لعبد الرحمن:
- هل توصلني إلى بيتي، إني أشعر بالإعياء.

كنت قد سجلت ما كان يونان يقوله على كاسيت صغير في جيبي، وأفصحت له عن ذلك منذ الجلسة الأولى لنا، وكنت في بيتي أستمع إلى ما قاله وإجاباته على أسئلتي مرة تلو أخرى، لكي أستطيع تفريغ الكاسيت، ووجدت أن المادة التي كتبتها تستحق التسجيل على الورق، فبدأت أفرغها من الكاسيت إلى الورق على جهاز الكمبيوتر الذي كان في أوليات ظهوره في منتصف التسعينات، وهكذا تجمع لي أطراف الحديث بحيث إذا ما ضاع التسجيل بقيت الأوراق، وإذا ما ضاعت الأوراق بقي التسجيل، وما زلت احتفظ بكلا الأمرين.

رافقتهما حتى أوصلتهما إلى بيتيهما، ومن ثم رجعت إلى مدينة باترسون وأنا في غم عميق، لأنني رأيت الإعياء باد على وجه يونان، أما صديقه فقد كان أكثر صحة منه، إذ كان يستطيع المشي مستقيمًا ولو أن عصاه كانت عكازة له في بعض الأحيان، أما يونان، فإن قدميه تحملانه بكل صعوبة.

جلست في بيتي وقد سرحت طويلاً، لكني في النهاية استسلمت إلى نوم عميق، وعندما أفقت في صباح اليوم التالي، كنت قد عولت أن أكتب المقدمة والنهاية لهذه القصة التي اعتبرتها غريبة، فقررت بعدها أن أغفلها زمنًا ثم أعود إليها لاحقًا.

مضت سنين أخرى، كنت خلالها أطمئن على يونان بين آن وآخر عن طريق الهاتف، وكان يجيبني على مكالماتي كما هو المعهود ضاحكًا ملء فمه، ولكنه بعد فترة بدا وكأن صوته يغوص في الأعماق كأنما هو في بحر ليس له من قرار.

(٢٤)

في ذلك الزمن ظهرت بوادر إنتاج أول هاتف نقال، فأصبح الاتصال سهلاً وميسرًا، أما ما كان يزعج فيه أنه كبير الحجم ثقيل الوزن تنفذ بطاريته عند أول عدة اتصالات يجريها صاحبه، لكنه كان ييسر أمور الاتصال على أية حال، اتصل بي يونان وقال:

- تستطيع أن تتصل بي في أي وقت تريده، فقد اشتريت هاتفًا نقالاً لا يفارقني.

قلت له:

- وأنا أيضًا كذلك...

تبادلنا الأرقام، سألته عن عبد الرحمن فقال:

- إنه في المستشفى.

- ما اسم المستشفى الذي يقيم فيه؟

- بإمكاننا أن نلتقي سويًا في المقهى، وبعدها آخذك إليه، ولا تنسَ أن المقهى يفتح عند العاشرة صباحًا.

- إذن نلتقي غدًا.

- هو كذلك.

عند العاشرة كنت أمام المقهى الذي لم يفتح أبوابه بعد، تأخر صاحبه قليلاً ثم جاء على عجل، كنت أول من دلف إلى المقهى، ثم انتظرت نصف ساعة قبل أن يأتي يونان متثاقلاً، احتضنني يونان بكل ما أوتي من ضعف وقال:

- عبد الرحمن صحته أصبحت بائسة، إنه لا يستطيع السير على قدميه.

- كانت صحته جيده فما الذي دهاه؟

- لقد أصيب عاموده الفقري بالانزلاق، إنه لا يستطيع السير إلا أن يتوكأ على عصا خاصة لا تنزلق عند ملامستها للأرض، وإذا سقط في مشيته كانت نهايته.

ابتسمت فقال:

- لا تظن أنني أمزح، إنها الحقيقة.

- إذن فلنذهب إليه في المستشفى.

- إنه يجري فحوصات هناك، دعني أتصل به أولاً.

- لك ذلك...

هاتفه ففرح عبد الرحمن لأنني أنوي زيارته.

وصلنا إلى المستشفى، زرنا عبد الرحمن لمدة نصف ساعة، ثم ذهبنا إلى مطعم قريب فتغدينا، كنت أرى أن يونان ضعيف جدًا وخاصة في مشيته، لكنه كان بكامل عقله، وبعد أن أكلنا قال لي:

- أنا لا أستطيع أن أذهب إلى المقهى في كل يوم أو أسبوع، ربما مضى شهرا قبل أن أفكر في الذهاب إلى هناك.

- إذا ما احتجتني فقط هاتفني فسأكون عندك في نصف ساعة.

- باركك الرب...

ومن ثم افترقنا.

مضت سنوات كنا نتصل ببعضنا البعض، ثم انقطع عن الاتصال، كنت أتصل به فيعطيني هاتفه الرنين لفترة ولكنه لا يجيبني، ثم توقف الرنين ، اتصلت بالمقهى عدة مرات فقال لي صاحبها إنه لا يأتي مطلقًا، سألته عن عبد الرحمن فقال:

- أتى مرة قبل شهور لا أعرف عددها ولكنه انقطع أيضًا.

- هل تهاتفني إذا ما جاء أحدهما؟

- طبعًا، سأتصل بك فورًا مجرد أن يظهر أحدهما سواء كان في الشارع أو المقهى.

- بورك فيك.

لم يظهر يونان بعدها أبدًا، ولم يظهر عبد الرحمن، وفي مرة كنت في جيرسي ستي فقررت الذهاب إلى الكنيسة التي وصفها لي يومًا، سألت من في الكنيسة فلم يعرفوه، لكن أحدهم قال لي:

- هل تعني يونان الفلسطيني؟

- هو بعينه، نعم.

- يا بني إنك تسأل عن رجل مات منذ سنين ثلاث أو أكثر قليلاً.

حزنت جدًا، وسألت عن المقبرة التي دفن فيها فقال:

- أعتقد أننا دفناه في المقبرة التي تقع على الشارع الرئيسي بمدينة جيرسي، إنها في شارع قنال.

- أعرف المقبرة، هل هناك اسمٌ معينٌ أو شاهدٌ يدل على وجود قبره؟

- نعم؛ لقد دفناه على نفقة الكنيسة، ووضعنا على قبره شاهدًا يدل على اسمه وتاريخ مولده وموته.

حزنت جدًا، وقلت لنفسي، ها قد مضت ثلاث سنوات على موت رجل لم يأبه له أحد، وبقي من الزمن أحد عشر عاما على موعد نشر قصته، وسأنفذ وعدي فلن أنشر منها حرفا واحدا إلا بعد مرور هذه السنين...

(٢٥)

لم أتوقع أن يكون لقائي بيونان وهو في عالم لا يراني فيه ولا أراه، إنه تحت التراب، ذهبت إلى قبره أحمل حزمة من الزهور اليانعة، وقبل أن أدخل المقبرة بكيت، قلت في نفسي ما أصعب أن يموت الإنسان غريبًا، بحثت عن قبره بين آلاف القبور، لم أعثر له في البداية على أثر، فقد كانت القبور مرصوصة، بعضها مضى عليه الزمن فنبت الشوك على حوافها لدرجة أنك لا تستطيع قراءة الأسماء على الشواهد، أما البعض الآخر فكانت تربته ما تزال ندية ولا وجود للشواهد على القبور، والبعض الأخير كانت شواهده واضحة للعيان وتلف القبر حزم من الزهور التي ما زالت طرية ويانعة...

أما قبر يونان فقد عثرت عليه أخيرًا، ومن الغريب أنني قرأت على قبره عبارة أبكتني، هنا يرقد يونان الفلسطيني الذى كان يُكنَّى جورج، ثم تاريخ ولادته وتاريخ وفاته، وكانت الكتابة منقوشة على الحجر الصلد الذي يعتبر شاهدًا على وجود الجثة فيه، أما ما تحت الخطوط الزخرفية، فقد كتب أحدهم بخط اليد، ولا يعرف أحد من الذي كتب تلك العبارة، هنا يرقد يونان، عاش غريبًا ومات غريبًا.

وضعت حزمة الزهور على قبره، دعوت له بالرحمة، ثم رجعت إلى سيارتي أحمل محرمة ورقية في يدي فأبللها ومن ثم استبدلها بأخرى بعد أن تعلوها الدموع كأنما غرست في حاوية ماء نظيف.

لم أنقطع شهرًا عن زيارة يونان في قبره، أرسلت إليه الزهور، نسقتها أحيانًا بيدي، وأخرى أحضرتها شراء من محلات الزهور، ثم أحضرت سطلاً بلاستيكيًا من الماء ملأته ووضعته إلى جانب القبر، كلما زرته أسقي الزهور التي أحضرتها إليه، وانقطعت عن زيارته بعد سنوات، ثم ذهبت إلى القبر فإذا بالشوك يعمم جوانب القبر، فقلت :

ـ رحمك الله يا يونان، كنت مزهرًا في حياتك، وحيًّا في مماتك، إنك في جنات الخلد، فإلى لقاء بعد وقتٍ في مكانٍ وزمانٍ لا أعرفه.



تمَّت

المؤلف في سطور

- رئيس تحرير جريدة (صوت العروبة) التي تصدر أسبوعيًا في الولايات المتحدة الأمريكية منذ أكثر من ثلاثين عامًا باللغة العربية.
- عمل محررًا صحافيًا في لبنان وفلسطين والأردن.
- كتب في معظم الصحف والمجلات العربية، في: مصر، لبنان، الكويت، العراق، الأردن، ليبيا، الصحافة العربية في لندن.

- **الإصدارات :**
  - أوراق من مفكرة مناضل: قصص قصيرة. دار الحرية، بغداد
  - خنّاس المخيم: قصص قصيرة. دار العودة، بيروت
  - نقوش على جدران الزنزانة: قصص قصيرة. دار العودة، بيروت
  - عزف منفرد على قماش الخيمة: قصص قصيرة. دار الحرية، بغداد
  - الصعاليك: رواية. الولايات المتحده الأمريكية
  - البّراق: قصص قصيرة. الولايات المتحده الأمريكية
  - وثيقة سفر فلسطينية: مسرحية. الإعلام الموحد
  - غروب في مطلع الشمس: دار نور للنشر، ألمانيا
  - صلي ع النبي يا جورج: رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة
  - رحلتي إلى أمريكا: رواية . شمس للنشر والإعلام، القاهرة

- الموقع الإلكتروني : www.arabvoice.com
- البريد الإلكتروني : wrabah@arabvoice.com



www.shams-group.net

الفهرس